

المشاهير والسجون

(مجموعة مقالات قديمة نُشرت في مجلة الهلال منذ ثمانين عاماً تقريباً)

اعتنى بنشرها

سليمان بن صالح الخراشي

قدّم لها فضيلة الشيخ الأديب

عائض بن عبد الله القرني



المشــاهير والســجون

مجموعة مقالات قديمة نشرت في مجلة الهلال

قبل ثمانين عامًا تقريبًا

اعتنى بنشرها

سليمان بن صالح الخراشي

قدم لها

فضيلة الشيخ الأديب

عائض بن عبدالله القرني





الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار ابن الأثير

المملكة العربية السعودية - ص.ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٣٥٦

تلفون: ٤٢٨٥٣٩٠ - فاكس: ٢٦٧٢٥٥٨

مقدمة للشيخ عائض القرني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وبعد :

فالسجن بيت الأحزان، ومقبرة الأحياء، ومجمع الهموم، فيه يقيد الذهن، ويحبس الضمير، وتغلق نوافذ الآمال، وفي السجن ترخص الحياة، ويعاف البقاء، ويطوف موكب الموت على القلب، ويسل الهلاك سيفه على الأعناق، في السجن تذوب المهج، وتسحق الهمم، وتفتت الأكباد، ليس في السجن إلا حيطان صامته، وألواح جامدة، وأبواب موصدة، صمت رهيب تكاد تختنق منه النفس، وسكوت مطبق تشرف منه الروح على البرزخ، أعاذك الله من السجن؛ لأنه بيت الوحدة والوحشة والفراق والحسرة والأسف، ويكفيك بشاعة السجن أن يوسف عليه السلام قال لصاحبه : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾، وهو نبي معصوم مؤيد، ولكن السجن مدهش محير مخيف، وقد قرأت كلام العلماء، وقصيد الشعراء، ومذكرات الزعماء وهم في السجن؛ فإذا كلماتهم تتقاطر أسفاً وحسرة، وإذا آهاتهم تسيل دماً، في السجن تغيب عن الأحباب والأصحاب والإخوان والخلان، فلا عطف والد ولا حنان والدة، ولا أنس ابن ولا عزاء صاحب ولا سلوة محب، السجن جد صارم، فيه التجهم كله، والعبوس أوله وآخره، والكدر جميعه،

لا جديد في السجن إلا تعاقب السجانين، تظن في السجن أن الشمس لا تجري وأن القمر واقف وأن الريح ماتت وأن عقارب الساعة لا تتحرك، وسوف تعيش في هذا الكتاب مع زفرات من السجن وأبيات من الحبس وقصائد خرجت من هناك حيث؛ الدموع الغزار والتوجع المتواصل، وهؤلاء هم الشعراء أقل الناس صبراً وأكثرهم شكاً وأرقهم عواطف وألهبهم مشاعر.

ولكن العلماء الربانيين لهم حديث آخر مع السجن، فهم يرونه بيت العبرة والفكرة، فيه يتجدد الإيمان ويسلم العبد من الذنب، ويتذكر القدوم على الرب ويدرك تفاهة الدنيا وحقارة العيش فتنهار قلاع الكبر ومستعمرات الرياء والعجب.

وعلى كل حال؛ فلا أسعد من الصبر على البلاء والشكر على النعماء، وانتظار الفرج، وما رأيت من الشعر في وصف السجن أبلغ من قول الشاعر يصف حياته هناك فيقول:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فجل حديثنا ... إذا ما تحدثنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت كانت بطيئاً مجيئها ... وإن قبحت لم تنتظر وأتت سعياً

وأستأذن القارئ الكريم ليطل معي إلى عالم آخر حيث القيد

والوحدة والفراق، وحيث طول الانتظار ومرارة الإحباط ووحشة الصمت، ولكن بلسان الشعراء فهيا إلى الكتاب .

وصلى الله وسلم على خير خلقه : محمد بن عبد الله وآله وصحبه وسلم.

د . عائض القرني

* * *

مقدمـــــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فهذه ست مقالات عن أحوال (المشاهير في السجون) نشرها الأديب عيسى المعلوف في مجلة الهلال المصرية قبل أكثر من ثمانين عاماً تقريباً، في الفترة ما بين (ديسمبر١٩١٩م - مايو١٩٢٠م) أحببت جمعها وإعادة نشرها لما فيها من أدب رفيع، وحكايات وأشعار ممتعة، صنعها حبس النفس البشرية في هذا المكان الضيق حتى جاشت بدرر العبارات والأبيات.

ولقد أكثر المؤلف ـ نظراً لثقافته ـ من ذكر أحوال الأدباء والشعراء في السجن، وتوسع في ذلك، بخلاف صنيعه مع الأنبياء والعلماء والصالحين، فكان هذا ثغرة في كتابه، حبذا لو قام أحد الأخيار باستدراكها عليه، وتتميم عمله بذكر أحوال أهل الإيمان في السجن، وسيجد مادة ثرية تعينه.

بقي ثلاثة تنبيهات:

الأول : أنني علقت في الهامش على ألفاظ يسيرة أخطأ فيها الكاتب، وذيلت تعليقي بحرف (س)، وكذلك حذفت ألفاظًا فاحشة وجعلت بدلها نقطًا متتالية .... .

الثاني : أنني اطلعت على كتاب بديع بعنوان (أدباء السجون) للأستاذ عبد العزيز الحلفي،طُبع دون تاريخ، يتحدث عن هذا الموضوع،وقد حوى شخصيات أدبية كثيرة كانت لها مع السجن صحبة وعلاقة.

الثالث: أن بعض الباحثين أنكر أن يجمع(مشهور)على (مشاهير) فرد عليه الأديب انستاس الكرملي وبين خطأه،وأيد صواب هذا الجمع، ثم عرض رده على العلامة محمود شكري الألوسي فأيده في هذا،وكان من قوله له : (إن لفظ مشاهير أشهر من نار على علم ، واستعمال البلغاء لها قديماً وحديثاً لا يحيط به نطاق الحصر)[١] .

والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

* * *

(١) أعلام العراق، للأثري ، ص١٩١ .

ترجمة صاحب مقالات (المشاهير والسجون) *

هو عيسى بن إسكندر ابن الخوري إبراهيم بن عيسى بن شبلي أبي هاشم المعلوف، ولد في قرية "كفر عقاب" اللبنانية في ١١ نيسان سنة ١٨٦٩م، فتلقى مبادئ العلوم في مدرسة قريته الأنجيلية. وفي أواخر سنة ١٨٨٤م دخل مدرسة الشوير العالمية الأنجيلية في لبنان ودرس الإنكليزية والعلوم على رئيسها الدكتور وليم كرسلو الاسكتلندي، وتخرَّج بالعربية. ثم ترك المدرسة لداعٍ في أُسرته ودرس على نفسه. ثم درّس في مدرسة الآباء اليسوعيين في قريته، وولع بالمطالعة واقتناء الكتب. وفي ٥ كانون الأول سنة ١٨٩٠م عين محرراً لجريدة "لبنان" التي أنشأها نسيبه إبراهيم الأسود وكاتباً لإدارتها أيضاً في بعبدا ومصححاً لمطبوعاتها. وكتب فيها مقالات عمرانية وأدبية ولا سيما في الزراعة والصناعة والتجارة والاقتصاد والأوضاع العربية.

وتولى تصحيح كتاب "البصائر النصيرية" في المنطق بمشاركة جرجس صفا بالمقابلة على نسخة قديمة. ولم يتم من هذا الكتاب إلا نحو

(*) منقولة من (تاريخ الصحافة العربية) لطرازي (١/٢٣٤-٢٣٨) بتصرف وزيادة. وللمعلوف ترجمة في (الأعلام) للزركلي (٥/١٠١)، وفي (معجم المطبوعات العربية والمعربة) لسركيس (٢/١٧٦٥) وفي (معجم المؤلفين) لكحالة (٨/٢٠).

نصفه ؛ لقفل المطبعة والجريدة في أول عهد نعوم باشا متصرف لبنان بعد أن ظهر من الجريدة ٨٦ عدداً.

فعاد إلى مسقط رأسه واشتغل في التصنيف، فوضع كتاب "لطائف السمر في لبنان والقرن التاسع عشر" وهو يبحث في شؤون لبنان وحكوماته وعادات سكانه وخرافاتهم وآدابهم الخ، ولا يزال مخطوطاً. وكذلك بدأ بوضع كتابه "دواني القطوف" في تاريخ أسرة المعلوف والأسر الشرقية، وهو الذي طبعهُ بعد ذلك. ووضع كتاب "الإغراب في الإعراب" ولا يزال مخطوطاً.

وسنة ١٨٩٣م طُلب لتدريس آداب العربية والعلوم العالمية والإنكليزية في "مدرسة كفتين" الأرثوذكسية في لبنان قرب مدينة طرابلس الشام. فدرَّس فيها بضع سنوات وتخرَّج عليه كثير من الأدباء والكتبة والشعراء. ونظم فيها ثلاث روايات تمثيلية هي: "مقتل بطرس الأكبر لولده الكسيس" و"جزاء المعروف" و"ذبح إبراهيم لولده" وهي مخطوطة. ووضع في تلك المدرسة بعض مؤلفات؛ مثل: "الكتابة" التي طبع منها الجزء الأول. ورسالة "الشعر والعصر" المطبوعة أيضاً. و"شحذ القريحة في المقطعات البليغة الفصيحة" وهو في الشعر والشاعر والفنون الشعرية، ومنتخبات الأشعار مرتبة على أسلوب جديد يقع في ١٦٠٠ صفحة. و"تحفة المكاتب للمعرّب والكاتب" وهي في الأوضاع اللغوية والمعربات. و"المشجرات" وهي تقسيم العلوم العربية لتسهيل تعلمها على طريقة

"السينويتيك" الفرنجية. وهذه الكتب الثلاثة لم تطبع.

ثم عاد إلى تحرير جريدة "لبنان" بعد استئناف نشرها، وإذ ذاك تزوج السيدة عفيفة كريمة إبراهيم باشا معلوف من زحلة. وجاء زحلة مستقدماً لتدريس الحلقات العليا في "الكلية الشرقية" المنشأة إذ ذاك عام ١٨٩٨م، فدرَّس فيها آداب العربية والرياضيات والإنكليزية بضع عشرة سنة. على أنه غادرها سنة واحدة انتدب فيها سنة ١٩٠٨م لإدارة المدارس الأرثوذكسية في دمشق.

فاستقدمتهُ "الكلية الشرقية" إليها في السنة التالية. ولما كان في دمشق حرّر جريدة "العصر الجديد" ثم مجلة "النعمة" البطريركية التي رتبها وأنشأ مقالاتها التاريخية والعلمية؛ منها "تاريخ الصحافة".

ولما كان في "الكلية الشرقية" أنشأ في أول تشرين الأول سنة١٩٠١م جريدة "المهذب" لطلبة البيان فطبعها على الهلام (الجلاتين) ثم نيل امتيازها وتولى تحريرها مدة. وأنشأ سنة ١٩٠٩م جريدة "الشرقية" على الهلام أيضاً لتلاميذه. وكان في ٦آذار سنة ١٩٠٣م قد أنشأ في تلك المدرسة "جمعية النهضة العلمية" وترأسها وهي للتمرين على الخطابة والمباحث الأدبية.

ولقد تخرّج على يده معظم ناشئة زحلة ولبنان الجديدة وهم من الأدباء والصحافيين في الوطن والمهجر. وفي شهر تموز سنة ١٩١١م أنشأ مجلة "الآثار" الشهيرة وهي متحف لأقلام كبار الكتاب في سوريا والعراق

ومصر. وكان أول ما نشر فيها صورة الأمير فخر الدين الثاني المعني وترجمته المطوّلة عن مخطوطات نادرة أهمها تاريخ "الخالدي" و"ذيل الكواكب" للنجم الغزي ونحوهما.

ونُشرت له مقالات كثيرة وقصائد في أهم المجلات والجرائد في سورية ومصر والمهجر؛ كالبيان والضياء والمقتطف والهلال والمشرق والشمس والرئيس والمقتبس والطبيب والإنسانية والصفاء والنور والحقيقة وفتاة الشرق والسمير والزهور والكوثر والاقتصاد والحسناء وكوكب البرية وحمص والأيام والبرازيل والأفكار والمحيط والشهاب والرائد المصري والطرائف وزحلة الفتاة والمهذب وأشباهها.

ومما نشره من مؤلفاته "تاريخ زحلة" و"خطاب الأخلاق مجموع عادات" و"الأم والمدرسة" و"دواني القطوف في سيرة بني المعلوف" و"الكتابة" و"تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني" و"الأسر العربية المشتهرة بالطب" و"قصر آل عظم بدمشق" و"تاريخ لبنان" . ومما لا يزال مخطوطاً منها "أسرار البيان" و"مغاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر" و"الأخبار المروية في الأسر الشرقية" في بضعة مجلدات و"قطوف الفوائد من رياض الجرائد" في بضعة عشر مجلداً و"الطرف الأدبية في تاريخ اللغة العربية" و"العصريات" و"نفائس المخطوطات" و"نوابغ النساء" و"التذكرة المعلوفية" وديوانه الذي سماهُ "بنات الأفكار" وفيه أكثر من عشرة آلاف بيت في المواضيع الحديثة؛ مثل قوله في الجرائد :

إذا فاح طيبٌ من رياض الفوائدِ فناشـــر ريـــاهُ نسيم الجرائدِ
هي العلة الأولى لرفع مواطنٍ هي الغاية الجلى لشهمٍ مجاهدِ
تهـــذّب أخلاقـــاً ترقي مواطناً تعـــزز آدابـــاً بأفضـــل عائدِ
فتاريخـــنا اليومي فيها مسطرٌ سيبقى بقاء النقش فوق الجلامدِ
رعـــى الله آثار الصحافة إنها مـــنار الهـــدى يبدو كقطبٍ
وسقياً لكتابٍ تجارى يراعهم بميدان طرسٍ كالجواد المطاردِ
أسالوا على القرطاس ماء دماغهم بذهـــنٍ زكيٍ زندهُ غير صالدِ
إذا صُنع اليوبيل يوماً لفاضل فللكاتب النحرير من دون جاحدِ

ومن شعره العلمي قوله:

مـــاذا أؤمل في حياتي مرتجى من صاحبٍ مهما استقمتُ تعرّجا
عجـــبي لمـــا في طـــبعهِ فكأنه مـــاءٌ وليس يسير إلا أعوجا

ومن حكمه قوله:

كـــل شـــيءٍ تقتنيه في الورى عـــندما تعطيـــه بعض الهممِ
إنمـــا العـــلم إذا أعطيتهُ الـــ كل يعطي البعض فابذل تغنمِ

وقوله:

دعِ عنك ما قد جنت الكبريا مـــن ثمر الشر الذميم الوخيمْ
فالكـــبرياءُ زهـــرةٌ قـــد نمتْ في حقـــل شـــيطان الشرور

ومن تعريبه قوله عاقداً حكمة شكسبير كبير شعراء الإنكليز:

كـــم نـــرى الخمـــرة داءً يـــــورد المـــــرء رداهُ

إنهـــا في فيـــه لـــصٌ ســـارقٌ مـــنهُ نُهـــاهُ

وقال معرّباً لشاعر فرنسي:

إنّ بيـــتاً ليـــس فيـــه ولـــدٌ يـــولي المســـره

قفـــصٌ لا طـــيرَ فيـــه وجـــنانٌ دون زهـــره

ومن تواريخه الشعرية قوله يؤرخ مجلة "البيان" اليازجية سنة ١٨٩٧ م مضمناً شطر التاريخ من قول أبي القاسم الخلوف:

هـــذي مجـــلة مَن بوافر علمهِ ضـــرب البيان موارد الأمثال

علاّمـــة العصر الرفيع مقامه ابـــ ن اليـــازجي محطـــة الآمـــال

في عهـــد عباس الأمير بعصرهِ قـــد نـــال إبرهيم أوج معالي

والعصر بالتاريخ جلّ وقد محا "فلق البيان غياهب الأشكال"

إلى غير ذلك من القصائد العصرية والمعرّبات الكثيرة من أشهر قصائد شعراء الفرنج على اختلافهم، ولا سيما الشعر التاريخي؛ فإنه أكثر منه كما قال نسيبه (قيصر بك المعلوف) من قصيدة في مدحه:

جعلتَ منه سنا التاريخِ منبثقاً وكـــان قدماً سناهُ غير منبثقِ

توفي المعلوف في (١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م)


المشاهير
و
السجون

١ـ تمهيد:

بينما كنت في غمرة الأحزان في أثناء الحرب العامة ونكباتها، أسمع تارة نبأ الاعتقال فالنفي فالصلب فالمصادرة، وأشاهد بعيني المظالم والضرائب، وأهدد مثل غيري بهذه الكوارث وتلك الفواجئ، إذ دار في خلدي استقراء ما جرى لمن تقدمني من المصائب وما تجشموه من المكاره؛ فجمعت من مطالعاتي ما عرف عند العرب والأعاجم من أشباه هذه الكبائر، مثل شعر الحرب والسجون والنفي والصلب وما ضاهاها، فقتلت بذلك تلك الأوقات المرة، وأحييت ميت الآمال، وهانت لديّ المصائب، واستعذت بالصبر في الضيق. معتمداً على المخطوطات والمطبوعات المتعددة في ما كتبت .

ولقد اقتطفت منها الآن مقالة (المشاهير والسجون) لتنشر على صفحات الهلال حسب طلب صاحبه صديقي العزيز ليفثأ المطالعون بها لوعتهم، ويبرد المعتقلون غلتهم، ويتلذذ المنكوبون بحلاوة الصبر بعد مرارة الآلام، مرتباً إياها بحسب الأغراض التي تمثلت لي، ولعلي على هدىً في ما نقلت متطرقاً إلى ما قيل في الاعتقال والنفي والأسر.. الخ.

٢ـ سجن المشاهير:

لقد مني كثير من المشاهير بالسجن والاعتقال والنفي والمصادرة

والصلب والرقب[١] (الشنق) والاستهداف[٢] والمحنة، ولم يكن عدد المبتلين بمثل هذه النوائب، وبالمصادرات والجائحات قليلاً في العالم حتى قال أحد الشعراء:

أقتلاً وسجناً واشتياقاً وغربة ونأي حبيب ان ذا لعظيمُ

ومن أقدم من اشتهر من المسجونين باحتمال المحنة سقراط الفيلسوف اليوناني الذي زج في أعماق السجن وله فيه أقوال رائعة؛ منها: "إذا جمعت نوائب الناس إلى محل واحد ليتقاسموها بالتساوي فالذين يحسبون أشقى الناس وأنكدهم حظاً يفضلون نصيبهم الأول على ما ينالونه من هذه القسمة". ومن إبائه المشهور أنه لما عرض عليه تلاميذه المساعدة ليفر من السجن أبى وفضل تجرع السم والموت. ومن أقواله يخاطبهم: "أرشدوني إلى مكان لا موت فيه فأفرّ إليه" ولما بكى أصحابه وطلبته وهو يتجرع السم قال لهم: "لماذا تبكون؟ ألم نخرج النساء حتى لا نسمع العويل؟ كونوا رجالاً واعملوا عمل الرجال".

وكذلك يوسف الصديق[٣] فإنه صبر على مضض البلوى لما تُجُنّي عليه وهو بريء. وما زال يغالب الأيام ويكافح المتاعب ويناصب

---

(١) وضعت هذه الكلمة للشنق من رقب الرجل أو نحوه إذا وضع الحبل في رقبته وأما الصلب فمعروف.

(٢) بمعنى أن يكونوا هدفاً للرصاص.

(٣) عليه السلام. (س)

العوائق حتى توفق إلى تفسير حلم فرعون فنال سدة الملك، وذاق حلاوة الهناء بعد تجرعه مرارة العناء من يوم حسده إخوته ثم باعوه ثم اعتقل.

وهكذا فعل إرمياً النبي في معتقله، والفتية الثلاثة، وكثير غيرهم، مثل غليلو الفلكي الذي لزم سجنه سنوات كثيرة وكان لا يأكل فيها إلا يابس الخبز، فكتب كثيراً من آرائه وهو مجاوز الخامسة والسبعين من عمره، وبقي مصراً على رأيه في دوران الأرض رغماً عن التهديد والوعيد فضايقوه في سجنه حتى ألزموه مرة أن يقول إنها لا تدور. فأجابهم: "كيف أنكر تحركها وأنا أشعر باهتزازها تحت قدمي" ثم رفس الأرض برجله وقال لهم: "وفوق كل ذلك أنها تدور".

وخريستوف كولمب مكتشف أميركا مني بمحنة السجن واحتمال الاضطهادات حتى أنه لم يضجر من التحامل والانتقام فقال لممتحنيه: "اجعلوا قيودي معي في إراني (تابوتي)".

ومثلهم الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الذي ذاق من عذاب السجن ألواناً لإكراهه على القضاء وهو في السبعين من عمره فلم يرهق ذلك التشفي عزمه، بل زاده تمسكاً بآرائه وترك وصية لابنه ووصية لأصحابه ومات في سجنه. وجاراه بتلك العزمة ابن تيمية الشهير المعتقل في قلعة دمشق وغيره.

فكانت محنة المشاهير في كل عصر تتناول الأنبياء والأولياء

والمصلحين والفلاسفة والعلماء والمنكودي الحظ والبسطاء على اختلاف مراتبهم، واتصلت بعصرنا الماضي والحاضر، فنكب بها كثير من المشاهير أخصهم نابليون بونابرت الذي كان يقلب صفحات الكتاب في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة ويقول: "سينساني التاريخ لأنني خُلعتُ عن سدة الملك" ولما عرض عليه أتباعه بعض أساليب لفراره قال: "خير لي أن أموت هنا شهيداً فإن ذلك قد يعيد الملك إلى ابني إذا بقي حياً".

ومن لطائف ما يحضرني من الأقوال في المحن والاعتقال قول التلمود: "خير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً" وقول هوراس: "إن ما نتجشمه من المصائب نراه أخف محملاً مما يكابده غيرنا إذا طلبت منا المقايضة به" وقول محمد الأبيوردي:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني   أعزُّ وأهوال الزمان تهونُ
وظل يريني الخطب كيف اعتداؤهُ   وبت أريه الصبر كيف يكونُ

وقول شكسبير الشاعر الإنكليزي مما عربه الشيخ أمين الحداد اللبنائي:

إذا ما تراءى الصبر لي حال دونهُ   مصاب أبي عندي فأبكي وأطرقُ
وحيث مجال الدمع في العين واسع   فثم مجال الصبر في القلب ضيقُ

ولما مثل القبعثري أمام الحجاج بن يوسف الثقفي تهدّده بقوله: "لأحملنّك على الأدهم" فقال القبعثري: "مثل الأمير من يحمل على

الأدهم والأشهب". فقال الحجاج: "إنما أردت الحديد" فأجابه: "والحديد خير من البليد" وفي ذلك التفنن بأساليب الكلام ما فيه. ولكثير من الأدباء في مثل هذه المواقف بدائع لا محل الآن لاستقرائها.

ومن بديع ما قيل في السجن على التشبيه إلغاز أحدهم في الإبريق بقوله:

ومحبوسٍ بلا ذنب جناهُ	له في السجن ثوب من رصاصِ
إذا أطلقته وثب ارتفاعاً	يقبّل فاك من فرح الخلاصِ

وقول الأرجاني مشبهاً:

تقصد أهل الفضل دون الورى	مصائبُ الدنيا وآفاتها
كالطير لا يحبس من بينها	إلا التي تُطْرب أصواتها

٣ـ أعمال المسجونين في معتقلاتهم:

لقد رأينا بالاستقراء أن كثيرين من المعتقلين استفادوا في معتزلاتهم وأفادوا حتى أن المجرمين منهم انتفعوا بما عملوه في سجونهم وأفادوا العالم به، وما ألطف قول ديكنز: "إن العظيم بين الناس من كان عظيماً في شقائه وعظيماً في سجنه وعظيماً في قيوده" وقول الآخر: "من عوائقنا تتولد قوتنا" فلذلك تظهر مواهب كثيرين من المسجونين من وراء جدران سجونهم فيكون التضييق عليهم توسيعاً لمعارفهم، وتقلص جسومهم

تمديداً في عقولهم.

- فمن قدماء المسجونين الذي اشتغلوا في عزلتهم إرميا النبي؛ فإنه أعدّ مواد نبواته المشهورة. وبولس الرسول فإنه وضع معظم رسائله في سجنه في رومية (إيطالية). ويوحنا الأنجيلي ألف (الرؤيا) و(الرسائل الثلاث) و(الإنجيل) وهو منفي في جزيرة بطمس.

- وممن اشتغل في معتقله من العرب أبو منصور الأزهري الهروي اللغوي المتوفى سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) لأنه أُسر عند إحدى قبائل البادية وهو يطوف في أحيائها لتحقيق اللغة والوقوف على لهجات العرب، فاغتنم فرصة اعتقاله واستفاد أشياء لغوية كثيرة أضافها إلى كتابه (التهذيب) مما لم يكن ليخطر له في بال في غير الاعتقال، فجاء كتابه هذا ممتعاً في أكثر من عشر مجلدات، وهو حتى الآن من أفضل المصنفات اللغوية في بابه.

- وبينما كان أبو تمام الطائي الشاعر مسافراً في بلاد العجم عاج بصديقه أبي الوفاء ابن مسلمة في همذان فأكرم مثواهُ وأبقاه عنده أياماً نزل في خلالها ثلجٌ حبسه عن متابعة سفره، فغمّ وفرح ابن مسلمة ببقائه عنده فقال يسلّيه: "وطّن نفسك على البقاء؛ إن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان". ولكي يشغله أوقفه على خزانة كتب كبيرة كانت في داره. فطالعها بتدبرٍ ووقف فيها على النوادر والشوارد من العلوم والفنون. ولم يصرف وقته جزافاً، فجمع من مطالعاته خمسة كتب في الشعر؛ منها

(الوحشيات) وهي ملاحم (قصائد طويلة) و(الحماسة) وهو مختار من أشعار العرب العرباء رتبه على عشرة أبواب أولها الحماسة فسماه بها. وقيل إن أبا تمام في اختياره لهذه الأشعار أشعر منه في شعره. وبقي (الحماسة) في خزائن آل مسلمة يضنون به حتى تغيرت أحوالهم، فحمله أبو العواذل الدينوري إلى أصبهان فأقبل عليه الأدباء وكان من أشهر الكتب المصنفة في معناه، ومن أفضلها؛ لأنه من المخاديم (أي الكتب التي خدمت بالشرح والتعليق).

- ولما اعتقل ابن خلدون المؤرخ الشهير وضع كثيراً من أفكاره ورسائله لمؤلفاته المشهورة.

- ولما سجن أبو إسحاق إبراهيم الصابئ الكاتب المعروف قال عضد الدولة بن بويه: "إن أراد الصابئ الخروج من سجنه فليصنف مصنفاً في أخبار آل بويه" فصنف الصابئ الكتاب (التاجي) وتأنق فيه حتى نمي إلى عضد الدولة أن صديقاً دخل عليه يوماً فرآه مكباً على عمله تسويداً وتبييضاً فسأله عما يشتغل؟ فقال الصابئ: "أباطيل أنمّقها وأكاذيب ألفّقها" فأوغر هذا الكلام صدر الملك عليه حتى أمر بقتله تحت أرجل الفيلة، ثم شفع به أصحابه فاستبدل ذلك بنفيه.

- وهكذا فعل الشيخ الرئيس ابن سيناء في معتقله بقلعة فردجان فإنه صنف فيها كتاب (الهدايات) و(رسالة حي بن يقظان) و(رسالة القولنج) وغيرها.

- ولما سجن المهدي العباس نديمه إبراهيم الموصلي لإدمانه الخمر اغتنم هذه الفرصة وتعلم القراءة والكتابة.

- وكذلك فعل أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي الأندلسي فإنه ألف في سجنه لما اعتقله الملك الأفضل في مصر كتباً ورسائل؛ منها (رسالة العمل في الإسطرلاب) و(كتاب الوجيز في علم الهيئة) و(كتاب الأدوية المفردة) و(تقويم الذهن) في المنطق و(الانتصار في الرد على علي ابن رضوان) في ردّه على حنين بن إسحاق في مسائله. وتفوّق في الطب.

- والشيخ أحمد بن تيمية الشهير سجن مدة في مصر ثم في قلعة دمشق وابتلي بالمحنة ولم يغير معتقده واشتغل بالتصنيف، فوضع مؤلفات ورسائل منها (تعاليق على تفسير القرآن) أوضح فيها ما التبس على طائفة من المفسرين، وألف في المسألة التي حبس لأجلها مجلدات عديدة. ولما منعوه عن الكتابة وحجزوا عنه القلم والدواة والقرطاس كان يكتب بالفحم على بعض الآنية ونحوها.

وما زال في محنته صابراً على بلواه إلى أن توفي في السجن سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م) فرثاه ابن الوردي مشيراً إلى طول سجنه بقوله:

وحبس الدر في الأصداف فخر ... وعند الشيخ بالسجن اغتباط

بآل الهاشمي له اقتداءٌ ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا

- وهذا الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي المشهور بآدابه سجن في دمشق سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) فألف في معتقله (تغريد الصادح) وهو منتزع من (كتاب الصادح والباغم) وقد صدّره بأبيات منها :

ألفهـا ابـن حجـة للنجبا لأن فيهـا رأس مـال الأدبا

واختـارها من مفردات الصادح فكـان ذا مـن أكبر المصالح

مـن كـل بيتٍ إن تمثلت به سـكنت مـن سامعه في قلبه

- وألف الشيخ بدر الدين محمد بن إسرائيل بن عبد العزيز الشهير باسم ابن قاضي سماونه المتوفى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) وهو مسجون في ازنيق (كتاب لطائف الإشارات) في الفقه ووضع عليه شرحاً باسم (التسهيل) والكتابان مشهوران بين الفقهاء.

- وإسحاق بن خلف المعروف بابن الطبيب تعلم نظم الشعر في سجنه واشتهر به حتى مدح الملوك وتوفي سنة ٢٣٠هـ (٨٤٤م).

- وألف أبو الوليد بن زيدون الأندلسي رسالة في سجنه يستعطف بها أمير مصره واشتهرت حتى شرحها صلاح الدين الصفدي شرحاً بديعاً.

- ووضع أحمد بن يحي بن المرتضي المهدي لدين الله المتوفى سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) في سجنه بصنعاء اليمن كتاب (الأزهار في فقه الأئمة الأخيار) وشرحه شرحاً مطولاً اسمه (الغيث المدرار) وشرحه كثيرون

غيره، ومنه نسخة في برلين

- ولما سجن الأمير زين الدين بن علي البحتري في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد في مصر كتب سيرة عنترة بخطه الجميل.

- ولما استودع البطريرك مكاريوس بن الزعيم الحلبي الأرثوذكسي هو وولده الأرشدياكون بولس في قلعة كالومينا بسبب الطاعون عند ذهابهما من رومانية إلى روسية وضع هو وولده بعض المؤلفات منها تاريخ أمراء تلك البلاد وحوادثها؛ مثل تاريخ الملك باسيليوس ملك البغدان وحربه مع عدوه، ونسخ ولده الأناجيل الأربعة .

- وياقوت الحموي انتفع في أسره كثيراً لأنه برع بتحصيل العلوم ووضع التآليف المهمة أخصها "معجم البلدان" و "معجم الأدباء".

- ومصلح الدين السعدي الشيرازي الشاعر المشهور في بلاد فارس لما أسر في حرب الصليبيين وضع مفكرات لبعض كتبه منها (الكلستان) المشهور.

- وهكذا كان الحال مع الإفرنج، فقد حركت قرائح كثير من علمائهم في سجونهم فألفوا الكتب المفيدة من متقدمين ومتأخرين، ومن مشاهير المتأخرين ديدرو الفرنسي من أشهر كتاب القرن الثامن عشر فإنه جمع في سجنه (دائرة المعارف) الفرنسية وساعده بعض أصدقائه في توسيعها فجمع القسم الرياضي منها دالمبير وطبعت من سنة ١٧٥١-١٧٧٢م في ثمانية وعشرين مجلداً. وعنها أخذت الأمم الأخرى (دوائر

معارفها)

- وفولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير سجن في الباستيل لهجائه لويس الرابع عشر بقصيدة، فنظم في سجنه قصيدة (ليج) أي التعاهد، ورواية (اوديبوس) ويقال إنها من أحسن ما كتبه من حيث شرح العواطف الحقيقية وذلك سنة ١٧١٨م ثم أطلق سراحه.

- والفيلسوف باكن الإنكليزي بقي في السجن زهاء ست عشرة سنة وكتب فيه أجمل مؤلفاته المتداولة وفيها أحسن أفكاره الفلسفية .

- واندره شينيه الفرنسي (١٧٦٢-١٧٩٤م) نظم في سجنه قصيدته (الفتاة الأسيرة) وهي من مشهورات القصائد الإفرنجية.

- وسلفيوباليكو الإيطالي كتب في سجنه بعض مؤلفاته. ومثله جيلبر وكلفان ونظم طاسو الشاعر الإيطالي الشهير في معتقله كل يوم خمسمائة بيت من الشعر الحماسي المشهور.

- وقضى ميخائيل دانت الزعيم الأيرلندي سبع سنوات في سجنه درس في أثنائها ما لا تلقنه المدارس فخرج منه سنة ١٨٧٨م وهو مستعد لتأليف المشاريع الوطنية ولإنشاء جريدة.

- والشاعر الفياري الإيطالي نظم في سجنه كثيراً من القصائد والمقاطيع: وكان نابليون بونابرت في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة يكتب (مذكراته) اليومية ويملي على كتاب كثيرين في وقت واحد، وربما أحيا ليله وإذا رآهم قد تعبوا وملوا عزّاهم بقوله: "إنه يترك لهم حق نشر ما

كتبوه فيكون ربحهم منه كثيراً".

- ولما حبس المستر وليم ستيد صاحب مجلة المجلات الإنكليزية لمجاهرته بمسألة الرقيق الأبيض سنة ١٨٨٥م كان اعتقاله نافخاً فيه روح النهضة الأدبية التي سنّمتهُ ذروة المجد العلمي والصحافي.

- ونظم دانتي الشاعر الإيطالي المعروف ملحمته (المضحكة الإلهية) التي يقال إنها أشبه برسالة الغفران للمعرّي في منفاه فكانت آية البلاغة اللاتينية.

- وسجن لص إيطالي زهاء ثلاثين عاماً كتب فيه قصصاً غريبة مفيدة تنافس بنشرها الصحافيون ودفعوا له ثمنها أموالاً كثيرة.

- وسجنت امرأة نمسوية مجرية لتحريضها عشيقها على ارتكاب جريمة قتل فألفت في سجنها روايات غرامية كثيرة نشرت في كتب ربحت منها أموالاً طائلة.

- وأما الاختراع في السجن فهو مشهور أيضاً لأن كثيراً من المجرمين المشهورين بإخلادهم إلى البطالة تراهم يتعلمون العمل وينزعون إلى الاستنباط وهم في سجونهم، ونعرف كثيراً منهم في سجون بلادهم الأميركية قد اخترعوا أشياء درت عليهم الأموال. فإن أحدهم في سجن أريزونا أوجد آلة تولد الكهربائية من الهواء بدل الماء. فأطلق الحاكم سراحه وسار إلى واشنطون فنال امتيازاً باختراعه فأفاد واستفاد.

- وآخر في ولاية أوهايو كان ملماً بعلم الكهربائية فاخترع في

سجنه عجلة كهربائية لكنس الشوارع فكوفئ براتب سنوي .

- وآخر أوجد زراً جديد الطرز للأطواق استفاد به أموالاً جزيلة.

- ورجل غيره اخترع آلة توضع في المخايط (مكنات الخياطة) فتغنيها عن بكرة الخيطان والمحواك (المكوك) الذي في أسفلها فقدمت له إحدى الشركات النيويوركية عشرين ألف ليرة إنكليزية ثمن اختراعه الذي استعملته في معاملها.

- ورسم مجرم إيطالي على جدران سجنه رسوم ألعاب رياضية بديعة فأخذ تخطيطها مطبعي وطبعها فربح ربحاً عظيماً منها.

- ولم يفت العرب مثل ذلك فإن أحد الأندلسيين عمل في سجنه مصوراً (خارطة) أو مخططاً فيه شيء عن أميركا حفره على خشب ولا يزال هذا الأثر النفيس في مدينة البندقية يزين متحفها ويدل على حذق العرب في الصناعات.

فلهذا نجد أن المصائب هي محك الرجال، حتى قال كاتب أميركي بهذا المعنى: "إن من أهم الذرائع الدافعة الإنسان إلى النجاح الفقر والتعب والصعوبة فلا تخف منها لأنها أفضل وسيلة لإحراز النجاح. وكثيراً ما رأينا الذين يعرضون عن هذه الذرائع يخسرون شبيبتهم!!"

وقال المعرّي:

يؤدبك الدهر بالحادثات   إذا كان شيخاك ما أدّبا

وقال ابن بابك:

فـإن عجمتني نيوب الخطوب ... وأوهـى الـزمان قوى مُنَّتي

فما اضطرب السيف من خيفةٍ ... ولا أُرعـد الـرمح من قرَّةِ

وقال المعرّي وأجاد:

ولمـا أن تجهمـني مـرادي ... جـريت مع الزمان كما أرادا

وهوّنـت الخطوب عليّ حتى ... كـأني صرت أمنحها الودادا

وقال الشيخ ناصيف اليازجي:

تعطي التجارب حكمة لمجربٍ ... حـتى تربي فوق تربية الأبِ

٤ـ أقوال الأدباء في المسجونين والمعتقلين:

قال كثير من الشعراء في أصحابهم المعتقلين والمسجونين يسلونهم، وفي بعض أقوالهم من موارد الحكم ونواجع المنظومات ما يستحق أن ينشر في هذه المقالة.

مثل قول أبي الشغب العبسي في خالد القسري[١] لما أسر وسجن:

ألا إن خير الناس حياً وهالكاً ... أسـير ثقيفٍ عندهم في السلاسل

(١) سجنه يوسف بن عمر الثقفي وقتله بعصر قدميه بين خشبتين حتى انقصفتا ثم إلى وركيه، وصلبه حتى قصف، وكان قتله سنة ١٢٦هـ (٧٤٣م).

لعمـــري لئن عمّرتم السجن وأوطـــأتموه وطـــأة المتـــثاقل

لقد كان يبني المكرمات لقومه ويعطي اللهى في كل حق وباطل

فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

-وكتب البحتري إلى أبي سعيد صاحبه وكان معتقلاً في السجن:

جعلـــنا فداك الدهر ليس بمنفكِ مـــن الحادث المشكو والنازل المشكي

ومـــا هـــذه الأيام إلا منازلٌ فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزلٍ ضنك

وقـــد هذبـــتك النائـــبات وإنما صـــفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

ومـــا أنت بالمهزوز جأشاً على الأذى ولا المتفري الجلدتين على الدعك

عـــلى أنه قد ضيم في حبسك الهدى وأضحى بك الإسلام في قبضة الشرك

أمـــا في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الظلم والإفك

أقام جميل الصبر في السجن برهة فـــآل به الصبر الجميل إلى الملك

-وكتب البستي إلى صاحبه وقد اعتقل:

فديتك يا روح المكارم والعلى بـــأنفس ما عندي من الروح والنفس

حبســـت فمن بعد الكسوف تبلج تضيء به الآفاق كالبدر والشمس

فلا تعتقد للحبس هماً ووحشة فقبلك قدماً كان يوسف في الحبس

-ونظم أبو المكارم بن آجروم يسلي ابن مرزوق لما سجن بعد قتل

السلطان أبي سالم:

يـــا شمـــس علم أفلت بعدما أضـــاءت المشـــرق والمغربا
حجـــبت قسراً عن عيون الورى والشـــمس لا ينكر أن تحجبا

-وكتب صاحب للأمير أبي العباس الهكاري المعروف بابن المشطوب إلى الملك الأشرف معتقله في قلعة حرّان (دوبيت):

يـــا من بدوام سعده دار فلك مـــا أنت من الملوك بل أنت ملك
مـــلوكك ابـــن المشطوب في السجن هلك أطـــلقه فإن الأمر لله ولك[1]

-وكتب إليه أحد الأدباء في سجنه:

يـــا أحمد ما زلت عماد الدين يا أشجع من أمسك رمحاً بيدين
لا تـــأس إذا حصلت في سجنهم ها يوسف قد أقام في السجن سنين

- وقال ابن خروف ...

أقاضـــي المسلمين حكمت حكماً عـــدا وجه الزمان به عبوساً
حبست على الدراهم ذا جمال ولم تحبســـه إذ سلب النفوسا

-وقال ابن سناء الملك ...

بنفسي الذي لم يضربوه لريبة ولكن ليبدو الورد في سائر الغصن

---

(١) الأمر لله وحده؛ ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾. (س)

ولم يودعـــوه السجن إلا مخافةً　　من العين أن تعدو على ذلك الحسنِ

وقالوا له شاركت في الحسن يوسفاً　　فشاركه أيضاً في الدخول إلى السجنِ

-وحبس الحجاجُ يزيدَ بن المهلب على مائة ألف درهم خراجاً تأخر عليه فجمعت له وهو في السجن، فزاره الفرزدق الشاعر وقال للحاجب: استأذن لي عليه. فقال له: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيتُ متوجعاً لما هو فيه ولم آت ممتدحاً. فأذن له فلما أبصره قال:

أبا خالدٍ ضاقت خراسانُ بعدكم　　وقال ذوو الحاجات أين يزيد؟

فما قطرت في الشرق بعدك قطرة　　ولا اخضر بالمرّين بعدك عودُ

ومـــا لسرير بعد بعدك بهجة　　ومـــا لجوادٍ بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم ونحن نصبر على ظلم الحجاج، فبلغت هذه الحجاج فأطلق سراحه وقال: نحن لا ندع يزيد يكون أكرم منا.

- وقال بعضهم في الشيخ الرئيس ابن سيناء لما سجن:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال　　وفي الســـجن مات أخس الممات

فـــلم يشف ما نابه (بالشفا)　　ولم يـــنج من موته (بالنجاة)

٥ـ تمثل السجناء بأقوال غيرهم في سجونهم:

- روى أبو العتاهية أن رفيقاً له في حبسه تمثل بقول الشاعر:

تعـــودت من الضر حتى ألفته ... وأسلمني حسنُ العزاء إلى الصبر

وصــــيرني يأسي من الله راجياً ... لحسن صنيع الله من حيث لا أدري

فانتحلهما أبو العتاهية وزاد فيهما:

إذا أنـــا لم أقبل من الدهر كل ما ... تكرهت منه طال عَتْبي على الدهر

- وكان الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ينشد وهو في سجنه هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس قالها في حبسه، وقيل إنها لعلي بن الخليل وكان هو وصالح يتهمان بالزندقة فحبسهما الخليفة المهدي بن المنصور وهي:

إلى الله فـــيما نالنا نرفع الشكوى ... ففي يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... ولا نحـــن في الأموات فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجان يوماً لحاجةٍ ... عجبـــنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

إلى كثير مما تمثلوا به مما لا فائدة من الإطالة فيه.

٦ـ أقوال المسجونين والمعتقلين من أدباء المشرق:

- كان عدي بن زيد العبادي أول من كتب بالعربية في ديوان الأكاسرة وهو ترجمانهم فحبسه النعمان بن المنذر اللخمي في مطبق (سجن مظلم) بعد أن زوجه ابنته. فكتب إليه عدي من سجنه يقول:

ألا مـــن مبـــلغ النعمان عني | وقـــد تهوى النصيحة بالمغيب
أحظـــي كـــان سلسلة وقيداً | وغـــلا والبيان لدى الطبيب
أتـــاك بـــأنني قد طال حبسي | ولم تسـأم بمســجونٍ حريب
وبيـــتي مقفـــرٌ إلا نســـاء | أرامل قد هلكن من النحيب
يـــبادرن الدموع على عديّ | كشَـــنّ خانـــه خرز الربيب
فهـــل لـــك أن تدارك ما لدينا | ولا تغلب على الرأي المصيب
فـــإني قد وكلت اليوم أمري | إلى رب قـــريبٍ مســـتجيب

ولما لم يطلق الملك النعمان سراحه كتب عديّ إلى شقيقه أُبيّ الذي كان في مجلس كسرى :

وتقـــول العداة أودى عديٌ | وبـــنوه قـــد أيقـــنوا بعَلاقِ
يـــا أبـــا مسهرٍ فأبلغ رسولاً | إخوتي إن أتيت صحن العراق
أبـــلغا عامـــراً وأبـــلغ أخاه | أنـــني موثـــق شـــديد وثاقي
في حديـــد مضـــاعف وغلالٍ | وثيـــاب منضـــحات خلاق
فاركبوا في الحرام فكوا أخاكم | إن عـــيراً تجهـــزت لانطلاقي

فتوسط كسرى أمره مع النعمان ليطلقه ولكنه قتله لوشاية سمعها عليه. ومن شعره في السجن أيضاً قوله وهو آخر ما قاله قبل قتله :

أبــلغ الــنعمان عــني مألكاً — أنه قد طال حبسي وانتظاري

لــو بغــير الماء حلقي شرقٌ — كــنت كالغصان بالماء اعتصاري

وعــداتي شُــمَّتٌ أعجــبهم — أنــني غيبت عنهم في إساري

لامــرئ لم يــبلُ مني سقطة — إن أصــابته مــلمات العثار

فلــئن دهــر تــولى خــيره — وجرت بالنحس لي منه الجواري

ربمــا مــنه قضــينا حاجــة — وحيــاة المرء كالشيء المعار

- وقال الممزق العبدي يخاطب ملكاً قد أسره:

أحقاً أبيتَ اللعن أن ابن فرتنا — على غير إجرامٍ بريقي مُشْرقي

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكل — وإلا فــادركني ولمــا أمــزق

-وتغنى عبد يغوث بن وقاص فارس بني الحارث وهو أسير في يوم الكلاب الثاني قبل قتله:

وقد علمت عرسي مليكة أنني — أنا الليث معدواً عليه وعادياً

وكــنت إذا ما الخيل شمّصها القنا — لــبيقاً بتصــريف القناة بنانيا

وعاديــة سوم الجراد وزعتها — بكفي وقد أنحوا عليّ العواليا

أمعشــر تيمٍ قد ملكتم فأسجحوا — فــإن أخاكم لم يكن من بوائيا

فــإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً — وإن تحــربوني تحــربوني بماليا

- وسجن الإمام عمر بن الخطاب الحطيئة الشاعر الهجّاء تخلصاً من قوارص كلامه ولواذع هجائه باستعداء الزبرقان بن بدر، فوضعه في بئر وألقى عليه غطاء، فكتب إليه من معتقله يستعطفه:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ... زغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمةٍ ... فارحم عليك سلام الله يا عمر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ... ألقت إليك مقاليد النهى البشر

لم يؤثـروك بها إذ قدّموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

فأطلق عمر سراحه على شرط كف لسانه عن الهجاء.

-واعتقل عامل الحجاج على اليمامة الشاعر جحدر بن مالك العجلي من قبيلة ربيعة فقال في معتقله:

لقدماً هاجني فازددت شوقاً ... بكاءٌ حمامتين تغردان

تجاوبتا بلحن أعجميٍ ... على غصنين من غرب وبان

فقلت لصاحبي وكنت أحزو ... ببعض القول ماذا تحزوان

فقالا الدار جامعة قريباً ... فقلت وأنتما متمنيان

فكان البان أن بانت سليمى ... وفي الغرب اغترابٌ غير دان

إذا جاوزتما نخلات حَجْر ... وأندية اليمامة فأنعياني

وقولا جحدرٌ أمسى رهيناً يعالج وقع مصقولٍ يماني

كذا المغرور بالدنيا سيردى وتهلكه المطامع والأماني

ولما وصل إلى الحجاج وسجنه أرسل عليه أسداً ليصارعه فجندله بقوله:

يا جمل إنك لو رأيت كريهتي في يوم هيجٍ مسدفٍ وعجاج

وتقدمي لليث أرسف موثقاً كيما أكابره على الإحراج

جهمٌ كأن جبينه لما بدا طبق الرحى متعجر الأثباج

يسمو بناظرتين تحسب فيهما لما أجالهما شعاع سراج

فكأنما خيطت عليه عباءةٌ برقاء أو قطع من الديباج

قرنان مختصران قد مخضتهما أم المنية غير ذات نتاج

ففلقت هامته فخر كأنه أطمٌ تساقط مائل الأبراج

ثم انثنيت وفي ثيابي شاهدٌ مما جرى من شاحب الأوداج

أيقنت أني ذو حفاظ ماجد من نسل أملاك ذوي أتواج

ممن يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

- ولجأ عبد الله بن الحجاج إلى أخيخ بن خالد فسعى به إلى الوليد ابن عبد الملك فأخذه من داره فأتى به الوليد فحبسه. فقال من قصيدة في

سجنه :

أقول وذاك فرط الشوق مني ... لعيــني إذ نأت ظمياءُ فيضي

فمــا للقــلب صبر يوم بانت ... وما للدمع يسفح من مغيضي

كــأن معــتقاً مــن أذرعاتٍ ... بمــاء ســحابةٍ خضرٍ بضيض

بفيهــا إذ تجــافيني حيــاء ... بســر لاتــباح بــه خفيض

وقال :

فــإن يعرض أبو العباس عني ... ويــركب بي عروضاً من عروض

ويجعــل عــرفه يوماً لغيري ... ويبغضــني فــإني من بغيض

فــإني ذو غــنى وكريم قومٍ ... وفي الأكفاء ذو وجه عريض

إلى أن قال :

كــأني إذ فــزعت إلى أخيخٍ ... فــزعت إلى مقــر قبةٍ بيوض

أوزة غيضــة لقحت كساداً ... لقحقحها إذا درجت نقيضي

- وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم والي مكة وخال هشام بن عبد الملك سجن الشاعر العرجي لأنه هجاه بثلاثة أبيات، فحلف ابن المغيرة أنه لا يخرجه من السجن ما دام له ولاية، فبقي فيه سبع سنوات حتى مات، ومن أقواله في سجنه :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر
وخلوني ومعترك المنايا وقد شرعت أسنتهم لنحري
كأني لم أكن فيهم وسيطاً ولم يكُ نسبتي في آل عمرو
أجرر في الجوامع كل يوم ألا لله مظلمتي وهصري
عسى الملك المجيب لمن دعاه سينجيني فيعلم كيف شكري
فأجزي بالكرامة أهل ودي وأجزي بالضغائن أهل ضري

- ولما نظم الفرزدق قصيدته المشهورة التي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

غضب هشام بن عبد الملك عليه وسجنه بين مكة والمدينة لأنه كان هناك. فقال الفرزدق في سجنه:

أتحبسني بين المدينة والتي إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيدٍ وعينا لـه حولاء بادٍ عيوبها

فلما بلغ قوله هشاماً أمر بإطلاقه.

- وكان عباد بن زياد قد سجن ابن مفرّغ الحميري ثم بعث إليه أن يبيعه الأراكة (وهي قينة لابن مفرغ) وبرداً (وهو غلام له أيضاً)، فأبى، فأخذهما منه قسراً فقال فيهما:

شـــريت برداً ولو ملكت صفقته ... لمـــا تطلـــبتُ في بيع له رشدا

لولا الدعي ولولا ما تعرض لي ... مـــن الحوادث ما فارقته أبداً

يا برد مامسنا (بردٌ) أضر بنا ... من قبل هذي ولا بعنا له ولداً

أمـــا (الأراك) فكانت من محارمنا ... عيشاً لذيذاً وكانت جنة رغداً

كـــانت لنا جنة كنا نعيش بها ... نغنى بها إن خشينا الذل والنكدا

يا ليتني قبل ما ناب الزمان به ... أهـــلي لقيت على عدوانه الأسدا

قـــد خاننا زمن لم نخش عثرته ... ما يأمن اليوم أم من ذا يعيش غداً

لا متني النفس في (برد) فقلت لها ... لا تهـــلكي إثر (برد) هكذا كمدا

كم من نعيم أصبنا من لذاذته ... قلـــنا لـــه إذ تولى ليته خلدا

فأخرج من السجن، ثم بالغ في هجاء عباد، فرد إلى الحبس ونظم فيه قصائد قال من إحداها:

وأطلـــتم مـــع العقوبة سجناً ... فكـــم السجن أو متى إرسالي

يغســـل الماء ما صنعت وقولي ... راســـخ منك في العظام البوالي

لو قبلت الفداء أو رمت مالي ... قـــلت خذه فداء نفسي مالي

ثم توسط أمره، فلما خرج من السجن قربت إليه بغلة من بغال البريد فامتطاها وقال:

عـــدس مـــا لعباد عليك إمارةٌ نجـــوت وهـــذا تحملين طليق

فـــإن الذي نجا من الكرب بعدما تلاحـــم في درب عليك مضيق

أتـــاك بخمخام فأنجاك فالحقي بأرضـــك لا تحبس عليك طريق

لعمـــري لقـــد أنجاك من هوة إمـــام وحـــبل للأنـــام وثيق

سأشكر ما أوليت من حسن نعمة ومثـــلي بشكر المنعمين حقيق

- وقال جعفر بن محلية الحارثي وهو مسجون بمكة من أبيات:

هواي مع الركب اليمانين مصعد جـــنيبٌ وجثماني بمكة موثق

عجبت لمسراها وأنى تخلصت إليّ وباب السجن دوني مغلق

- وقيل لما سجن الخليفة الأمين العباسي نديمه أبا نواس كتب إليه من السجن:

بـــك أســـتجير مـــن الردى مـــتعوّذا مـــن ســـطو باسك

وحيـــاة رأســـك لا أعـــود لمثـــلها وحيـــاة رأســـك[1]

مـــن ذا يكـــون أبـــا نـــوا ســـك إن قتـــلت أبـــا نوسك

- وقال إبراهيم بن المدبر وهو محبوس:

تسلى ليس طول الحبس عارٌ وفيـــه لـــنا مـــن الله اختيار

---

(١) الحلف بغير الله لا يجوز. (س)

فــلولا الحبس ما بلي اصطبارٌ ولــولا الليل ما عُرِف النهار

ومــا الأيــام إلا معقــبات ولا الســلطان إلا مســتعارُ

ســيفرج مــا ترين إلى قليل مقــدره وإن طــال الإســارُ

وله في حبسه أشعار كثيرة ؛ مثل قوله من قصيدة :

هــو الحبس ما فيه عليّ غضاضة وهل كان في حبس الخليفة من عار

ألســت ترين الخمر يظهر حسنها وبهجتها بالحبس في الطين والقار

ومــا أنا إلا كالجواد يصونه مقوّمه للسبق في طيّ مضمار

أو الــدرة الزهراء في قعر لجة فــلا تجتلى إلا بهول وأخطار

- ولما وُشي بالشيخ الرئيس ابن سيناء وسجن في قلعة فردجان أربعة أشهر أنشأ في سجنه قصيدة قال فيها :

دخــولي بــاليقين كمــا تراه وكــل الشــك في أمر الخروج

- ولما اعتقل أحمد بن المدير غلاماً لأحمد بن طولون أرسله إليه من مصر وضيق عليه ، كتب إليه رقعة ودفعها إلى من كان يتولى خدمته وأمره أن لا يدفعها إلا في يد ابن طولون ، فأوصلها إليه. فدعا حينئذ ابن طولون كاتبه ابن حدار الشاعر الأديب وقال له : اقرأ ، فقرأها وهي :

أريت قبيل الصبح رؤيا كأننا جميعاً على سطح ينيف بنا السطح

إذا فارس يهوي إلى السطح مقبلاً أخو شكة برهانه السيف والرمح
يـــلوّح بالبشرى إليك مبادراً بعقب كتاب الفتح إذ قرئ الفتح
وقل لي فدتك النفس من كل حادث وإن بـــان بالنفس النفاسة والشح
أما كان دون الحبس للمرء معتب بتمويه واش شأنه القذف والقدح
يصرّح بالبهتان تصريح مازح ويـــا رب جدّ قاده اللعب والمزح

فقال لابن حدار: أجبه. فقال : بالرضى أم بالسخط؟ فقال: بالسخط. فقلب الرقعة وكتب في ظهرها:

أأحمـــد كان السطح بين محمد منيفاً ولو عاليته انخسف السطح
متى كنت بالإخلاص لله موقناً فتصدق في رؤياك إذ قرئ الفتح
ولكـــن أدام الله عـــز أميرنا ودامت له النعمى ودام له النجح
فكـــم ذبحت كفاك من رب نعمة بلا شفرة بل تحتوي الملك والسرح
فأصـــبح ممـــا خوّل الله عارياً فـــلا جاهه يبقى ولا المال والربح
ومن عدلنا أن قد زويت مضيقاً عليك فلا عفوٌ مرجى ولا صفح
فلو جاءنا الناعي بنعيك جاءنا بـــأن جاء نصر الله للناس والفتح

فلما قرأها عند ذلك يئس من نفسه. وبقي مسجوناً إلى أن مات في معتقله سنة ٢٧١هـ (٨٤٤م).

-وكان الأمير صلاح الدين قد سجن خليل بن عرّام نائب الإسكندرية لقتله الأمير بركة، ثم أمر بإخراجه من سجنه وتسميره على الجمل عرياناً بعد جلده فأنشد:

لـــك قـــلبي تحـــلّه | فدمـــي لِـــمْ تحـــلّه
لـــك مـــن قـــلبي المكـــان | فـــلِمْ لا تحلـــه
قـــال إن كـــنت مالكـــاً | فـــلي الأمـــر كلـــه

فقطعه مماليك الأمير بركة إرباً إرباً

- وسجن المهدي العباسي أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالنديم الموصلي لإدمانه الشرب. فقال في سجنه:

ألا طـــال ليلي أراعي النجوم | أعـــالج في الساق كبلاً ثقيلاً
بـــدار الهـــوان وشـــر الديار | أســـام بها الخسف صبراً جميلاً
كـــثير الأخـــلاء عند الرخاء | فـــلما حبســـت أراهم قليلاً
لطـــول بلائـــي مل الصديق | فـــلا يأمـــنن خـــليلٌ خليلاً

فأخبر سلم الخاسر أبا العتاهية بذلك فأنشده:

سلم يا سلم ليس دونك سر | حـــبس الموصلي فالعيش مر
مـــا اســـتطاب اللذات قد غاب في المطبـــ | ـــق رأس اللذات في الناس حر

ترك الموصلي مَن خلق الله جميـــ ـــعــاً وعيشـــهم مقشـــعر

حبس اللهو والسرور فما في الأر ض شـــيءٌ يـــلهى به ويسر

- ولما كان الشيخ أحمد بن تيمية مسجوناً في قلعة دمشق قيل إنه نظم على لسان الفقراء المجردين هذه الأبيات :

والله مــــا فقــــرنا اخــــتيارٌ وإنمــــا فقــــرنا اضــــطرار

جماعــــة كلــــنا كســــالى وأكلــــنا مــــا لــــه عيــــار

تســــمع مــــنا إذا اجتمعــــنا حقيقــــة كــــلها فشــــار

- ولما سجن أبو إسحاق إبراهيم الصابئ الكاتب المعروف نظم في اعتقاله أشعاراً بليغة نشر طائفة منها الثعالبي في يتيمة الدهر؛ منها قوله من قصيدة :

يعــــيرني بالحــــبس من لو يحله حلولي لطالت واشمخرت مراكبه

ورب طــــليق أطلق الذل رقه ومعــــتقل عان وقد عز جانبه

وإني لقــــرن الدهر يوماً تنوبني ســــطاه ويوماً تنجلي بي نوائبه

ومن مد نحو النجم كيما يناله يــــداً كيدي لاقته أيدٍ تجاذبه

ولا بــــد للساعي إلى نيل غاية مــــن المجد من ساعٍ تدب عقاربه

وإني وإن أودت بمــــالي نكبة نظــــيري فيها كل قَرم أناسبه

كذلك مثلي نفسه رأس ماله بهـا يدرك الربح الذي هو طالبه
ولـلمال آفـات يُهَـنَّأ ربه بهـا إن تخطـته إليه مصائبه
ومن يكن السلطان فيها خصيمه فـلا عار في الغصب الذي هو غاصبه
ولي بين أقلامي ولبي ومنطقي غـنىً قلما يشكو الخصاصة

وقوله من قصيدة أخرى:

يـا أيها الرؤساء دعوة خادمٍ أوفـت رسائله على التعديد
أيجوز في حكم المروءة عندكم حبسـي وطول تهددي ووعيدي
أنسـيتمُ كتباً شحنت فصولها بفصـول دُرٌّ عـنكم منضود
ورسـائلاً نفذت إلى أطرافكم عـبد الحميـد بهن غير حميد
يهـتـز سامعهن من طرب كما هز النديم سماع صوت العود

وقيل إن من جملة الأسباب التي حملت على إطلاق سراحه من سجنه أن الصاحب بن عباد دخل على عضد الدولة في همدان وهو مكب على دفتر يقرأه فقال: يا أبا القاسم هذه رسالة لك في بعض فتوحنا نحن نأخذها بأسيافنا وأنت تحملها بأقلامك. فقال الصاحب: المعنى مستفاد من مولانا وإن كانت الألفاظ لخادمه. ثم أنشد:

وأنـت أكتب مني في الفتوح وما تجـري مجياً إلى شأوي ولا أمدي

فسأله: لمن البيت؟ . فقال: لعبدك أبي إسحاق الصابئ. وكان سجيناً. فأمر بإطلاق سراحه وخلع عليه. هكذا روى بعضهم:

وقيل إن من جملة أسباب إطلاقه من سجنه قوله من قصيدة لأبي الفرج الببغاء منها:

وآنستني في محبسي بزيارةٍ   شفت كمداً من صاحب لك قد خلصْ
ولكنها كانت كحسوة طائرٍ   فواقاً كما يستفرص السارق الفرصْ
وأحسبك استوحشت من ضيق محبسي   وأوجست خوفاً من تذكرك القفصْ
كذا الكرز اللماح ينجو بنفسه   إذا عاين الإشراك تنصب للقنصْ

- ولما اعتقل ابن عطية القضاعي كتب من سجنه:

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا   فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا في ليل من السخط حائرٍ   ولا أهتدي حتى أرى للرضى صبحا

- ولما أسر الروم أبا فراس الحمداني نظم معظم ديوانه في مأسره، فمنه ما كتب به إلى أخيه أبي العشائر من أبيات:

نفى النوم عن عيني خيالُ مُسَلِّمِ   تأوب من أسماء والركب نوم
وخطب من الأيام أنساني الهوى   وأحلى مذاق الموت والموت علقم
ووالله ما شببت إلا علالة   ومن نار غير الحب قلبي يضرم

فمن مبلغ عيني الحسين ألوكةً تضـــمنها در الكـــلام المنظم
لذيـــذ الكرى حتى أراك محرمٌ ونار الأسى بين الحشى تتضرم
وأتــــرك أن أبكي عليك تطيراً وقلبي يبكي والجوانح تلطم[1]
وأظهــــر للأعداء فيك جلادةً وأكـــتم مــــا ألقاه والله يعلم
ومـــا أغربت فيك الليالي وإنها لتصدعنا من كل شعب وتثلم
طـــوارق خطب ما تغب وفودها وأحـــداث أيــــام تفذ وتتئم
فما عرفتني غير ما أنا عارف ولا علمتني غير ما كنت أعلم

ومن بديع ذلك قوله :

إرث لصــــب بـــك قـــد زدته عـــلى بلايـــا أســـره أســـرا
قـــد عـــدم الدنيـــا ولذاتها لكـــنه مـــا عـــدم الصـــبرا
فهـــو أســـير الجسم في بلدةٍ وهـــو أسير القلب في أخرى

وكتب إلى سيف الدولة ابن عمه يستفديه من قصيدة :

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلى وأســـرع عـــوادٍ إليهم معود
يدافـــع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

---

(١) قال الثعالبي في يتيمة الدهر : لم يسمع أحسن من هذا البيت في التفجع بمنكوب

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلد

وكتب إلى والدته يشكو إليها جراحه:

مصابي جليل والعزاء جميل وظني أن الله سوف يزيل

جراح تحاماها الأساة مخافة وسقمان بادٍ فيهما ودخيل

وأسر أقاسيه وليل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول

تطول به الساعات وهي قصيرة وفي كل دهر لا يسرك طول

تناساني الأصحاب إلا عصابة ستلحق بالأخرى غداً وتحول

وسمع مرة حمامة تنوح على شجرة عالية قرب معتقله فقال:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتي هل تشعرين بحالي

معاذ الهوى ما ذقت طارقة الهوى ولا خطرت منك الهموم ببال

أتحمل محزون الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عالي

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

تعالي تري روحاً لديّ ضعيفة تردد في جسم يعذب بال

أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ويسكت محزون ويندب سال

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً ولكن دمعي في الحوادث غال

- ولما امتحن إبراهيم بن عبد الرحمن السؤالاتي صبر على

امتحانه صبراً لم يعهد مثله وقال:

تصبر ففي اللأواء قد يحمد الصبر ولـولا صروف الدهر لم يعرف الحر
وإن الـذي أبـلى هو العون فانتدب جميل الرضى يبقى لك الذكر والإصر
وثـق بـالذي أعطى ولا تك جازعاً فـليس بحزم أن يروعك الضر
فـلا نعـم تبقى ولا نقم ولا يـدوم كـلا الحالين عسرٌ ولا يسر
تقـلب هذا الأمر ليس بدائم لديـه مع الأيام حلو ولا مر

-ولما عزل إبراهيم بن العباس الصولي عن الأهواز في أيام محمد بن عبد الملك الزيات اعتقل بها وأوذي. وكان محمد صديقه قبل الوزارة وكان يؤمل منه أن يسامحه ويطلق سراحه فكتب إليه:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب وسـلط أعداء وخاب نصير
تكـون عن الأهواز داري بنجوة ولكـن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجـو بعد هذا محمداً لأفضـل ما يرجو أخ ووزير

فأقام محمد على قصده، وتكشفوا الإساءة إليه حتى بلغ منه كل مكروه وانفرجت الحال بينهما على ذلك، فهجاه إبراهيم هجاءً كثيراً.

-وكتب إدريس بن يزيد النابلسي إلى الحسن بن يوسف اليزيدي لما حجبه:

سأترككم حتى يلين حجابكم عـلى أنـه لا بد أن سيلين

خذوا حذركم من نوبة الدهر إنها   وإن لم تكـن حانت فسوف تحين

فلما قرأ البيتين رده وقضى حاجته .

- ولما حُبس أبو علي محمد بن علي بن الحسين المعروف بابن مقلة الخطاط المشهور وجذمت يده وجز لسانه ذاق في السجن ألوان العذاب فوصف آلامه بأشعار كثيرة منها قوله :

ما سئمت الحياة لكن توثقـ   ـت بأيمـانهم فـبانت يميـني

بعـت ديني لهم بدنياي حتى   حـرموني دنيـاهم بعد ديني

ولقد حطت ما استطعت بجهدي   حفـظ أرواحهم فما حفظوني

ليـس بعد اليمين لذة عيش   يـا حيـاتي بانت يميني فبيني

ومن ذلك قوله :

لسـت ذا زلة إذا عضني الدهـ   ـر ولا شـامخاً إذا وأتـاني

أنـا نارٌ في مرتقى نفس الحا   سـد مـاءٌ جارٍ مع الإخوان

وقوله بعد خروجه من معتقله :

تخـالف الـناس والـزمان   فحيـث كـان الزمان كانوا

يـا أيهـا المعرضـون عـني   عـودوا فقـد عاود الزمان

-ولما حبس هارون الرشيد أبا العتاهية لتمنعه عن نظم شيء في الغزل ومضى عليه زمن في سجنه دخل عليه يوماً مخارق وأخذ عنه هذه

الأبيات التي قالها في السجن متشوقاً إلى امرأته وهي:

مـن لقـلبٍ متـيم مشتاق ... شـفه شـوقه وطول الفراق

طـال شـوقي إلى قعيدة بيتي ... ليت شعري فهل لنا من تلاق

هي حظي قد اقتصرت عليها ... مـن ذوات العقود والأطواق

جمـع الله عـاجلاً بـك شملي ... عـن قريب وفكني من وثاقي

فسار مخارق بهذه الأبيات إلى إبراهيم الموصلي فصنع فيها لحناً ودخل به على الرشيد، فكان أول صوتٍ غناه إياه في ذلك المجلس، وسأله: لمن الشعر والغناء؟ فقال إبراهيم: أما الغناء فلي وأما الشعر فلأسيرك أبي العتاهية. فقال الرشيد: أوقد فعل؟ فقال إبراهيم: نعم. فدعا به الرشيد. ثم قال لمسروق الخادم: كم ضربنا أبا العتاهية. قال: ستين. فأمر له بستين ألف درهم وخلع عليه وأطلقه.

-وقال أبو الحسن علي بن الجهم القرشي في حبسه لما سخط عليه المتوكل:

قالوا حبستَ فقلت ليس بضائري ... حبسـي وأي مهند لا يغمد

أو ما رأيت الليث يألف غيله ... كـبراً وأوباش السباع تصيد

والشـمس لولا أنها محجوبة ... عـن ناظريك لما أضاء الفرقد

والبدر يدركه السرار فتنجلي ... أنـواره وكأنـه يـتجدد

والغيث يحصره الغمام فما يرى ... إلا وريقه يروع ويرعد
والزاعبية لا يقيم كعوبها ... إلا الثقاف وجذوة تتوقد
والنار في أحجارها مخبوءة ... لا تصطلي ما لم تثرها الأزند
والحبس ما لم تغشه لدنيئة ... شنعاء نعم المنزل المتودد
بعث يجدد للكريم كرامة ... ويزار فيه ولا يزور ويحمد
كم من عليل قد تخطاه الردى ... فشفي ومات طبيبه والعود
مهلاً فإن اليوم يعقبه غدٌ ... ويد الخلافة لا تطاولها يد

فكان قوله سبباً في العفو عنه.

-وقال ابن مماتي في سجنه:

وضاق عليّ السجن حتى كأنني ... حللت به للضيق صدر محنق
فيا ليتني كالدمع في جفن عاشق ... فأخرج أو كالسر في صدر أحمق

-وكتب أبو دلامة إلى المهدي العباسي لما سجنه مع الدجاج لسُكْره:

أمير المؤمنين فدتك نفسي ... علام حبستني وخرقت ساجي
أقاد إلى السجون بغير ذنب ... كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لهان هذا ... ولكني حبست مع الدجاج

دجاجات يطوف بهن ديك ... ينادي بالصياح إذا يناجي

وقد كانت تخبرني ذنوبي ... بأني من عذابك غير ناج

على أني وإن لاقيت شراً ... لخيرك بعد ذاك الشر راج

فأطلقه ووصله وخلع عليه .

-وقال الأمير أبو وائل الحمداني لما أسره المبرقع :

يا خليليّ أسعداني فقد عيل ... طباري على احتمال البلية

غربة قارظية وغرامٌ ... عامري ومحنةٌ علويه

- وكان الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك تقي الدين عمر ابن شهنشاه قد حبس زكي الدين بن عبدالرحمن العوفي لأبيات قالها فيه أوغرت صدره عليه. فقال له: ما ذنبي إليك؟ فقال : قولك "وحسبنا الله ونعم الوكيل" في بيتيك وهما :

إن الذي أعطوه لي جملةً ... قد استردوه قليلاً قليلْ

فليت لم يعطوا ولم يأخذوا ... "وحسبنا الله ونعم الوكيلْ"

وذلك لأنه كان قد أجازه بألف دينار أنفقها في سفره معه. فأمر الملك المظفر بخنقه، فلما أحس بذلك قال :

أعطيتني الألف تعظيماً وتكرمةً ... يا ليت شعري أم أعطيتني ديني

-وكان أبو الطيب المتنبئ قد حبس بداعي قيامه بالدعوة فقال

قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أيــا خـــدد الله ورد الخدود ... وقــد قدود الحسان القدود

ومنها[١] :

أمــالك رقــي ومــن شأنه ... هــبات اللجين وعتق العبيد

دعوتــك عــند انقطاع الرجاء ... والمــوت مني كحبل الوريد

دعوتــك لمــا بــراني البلى ... وأوهــن رجــلي ثقل الحديد

ومنها :

وقــد كان مشيهما في النعال ... فقــد صار مشيهما في القيود

وكــنت مــن الناس في محفل ... فهــا أنــا في محفل من قرود

تعجــل فــيَّ وجوب الحدود ... وحــدي قبل وجود السجود

وكتب المتنبئ أيضاً من سجنه إلى صديق أنفذ إليه مبرةً :

أهــون بطول الثواء والتلف ... والســجن والقيد يا أبا دلفِ

غــير اخــتيار قبلت برك بي ... والجوع يرضي الأسود بالجيف

كن أيها السجن كيف شئت فقد ... وطنت للموت نفس معترف

لــو كان سكناي فيك منقصةً ... لم يكــن الدر ساكن الصدف

---

(١) هذا الدعاء لا يجوز إلا لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه. (س)

-ولما اعتقل حسام الدين الحاجري الإربلي الشاعر في قلعة إربل منقولاً من سجنه في قلعة خفتيد قال في اعتقاله من أبيات:

قيــدٌ أكــابده وسجن ضيق		يا رب شاب من الهموم المفرق

إلى أن قال:

يا برق إن جئت الديار بإربل		وعــلا عليك من التداني رونق
بــلغ تحيــة نــازح حسراته		أبــداً بأذيــال الصــبا تتعلق
قل يا حبيب لك الفداء أسيركم		من كل مشتاق إليكم أشوق
والله مــا سرت الصبا نجديةً		إلا وكدت بدمع عيني أغرق
كيف السبيل إلى اللقاء ودونه		شمــاء شــاهقة وباب مغلق

وقال أيضاً:

أحبابــنا أي داع بالبعاد دعا		وأي خطــب دهانا منه تفريق
لا كان دهر رمانا بالفراق فقد		أضحى له في صميم القلب تمزيق
كانت تضيق بي الدنيا بغيبتكم		فكيف سجن ومن عاداته الضيق

وقال الحاجري من قصيدة أخرى:

الصــعو يرتع في الرياض وإنما		حــبس الهــزار لأنــه يترنم

-ولما سُجن الحكم بن عبدل الأسدي الكوفي الشاعر الأعرج مع

صديقه الأعمى أبي علية ونظر إلى عصاه ملقية في جنب عصا أبي علية ضحك وقال:

حبسي وحبس أبي علية ... من أعاجيب الزمان

أعمى يقاد ومقعد ... لا الرجل منه ولا اليدان

هذا بلا بصر هنا ... ك وبي يخب الحاملان

يا من يرى ضب الفلا ... ة قرين حوت في مكان

طرفي وطرف أبي عليـ ... ـه دهرنا يتوافقان

من يفتخر بجواده ... فجوادنا عكازتان

طرفان لا علفاهما ... يُشرى ولا يتصاهلان

-وكان الشاعر ابن القطان البغدادي قد هجا جلال الدين الزينبي بقصيدته الكافية التي مطلعها :

يا أخيّ الشرط أملك ... لست للثالب أترك

وهي مائة وثمانية وعشرون بيتاً. فسير إليه الزينبي أحد غلمانه فأحضره بين يديه وصفعه وحبسه. فلما طال حبسه كتب إلى مجد الدين بن الصاحب أستاذ دار الخليفة أبياتاً يقول فيها:

إليك أظل مجد الدين أشكو ... بلاءً حل لست له مطيقاً

وقومـــاً بـــلغوا عـــني محالاً إلى قاضي القضاة الندب سيقا

فأحضرني بباب الحكم خصمٌ غـــليظ جـــرني كمـــا وزيقا

وأخفـــق نعله بالصفع رأسي إلى أن أوجس القلب الخفوقا

على الخصم الإداء وقد صفعنا إلى أن مـــا تهَديـــنا الطريقا

فيا مولاي هب ذا الإفك حقاً أيحبس بعد ما استوفى الحقوقا

ولما خرج من السجن أنشد :

عـــندي الـــذي طرَّف بي أنه قـــد غض من قدري وآذاني

فالحـــبس مـــا غير لي خاطراً والصـــفع مـــا لـــين آذاني

-وكان الملك الكامل قد سجن صلاح الدين الإربلي فأرسل إليه بهذا الدوبيت :

ما أمر تجنيك على الصب خفي أفنيت زماني بالأسى والأسف

ما ذا غضب بقدر ذنبي ولقد بـــالغت وما أردت إلا تلفي

فأطلق سراحه .

-ولما نفى السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير أبا المحاسن شرف الدين محمد بن عنين الأنصاري من دمشق لوقوعه في الناس ولا سيما رؤساء دمشق موطنه، وذلك بنظم قصيدة (مقراض الأعراض) في هجائهم قال وهو خارج من دمشق إلى اليمن :

فعلام أبعدتم أخا ثقة لم يقترف ذنباً ولا سرقا

انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا

-ولما مات صلاح الدين وملك العادل دمشق سار إلى دمشق وكتب إلى العادل يستأذنه في الدخول إلى مسقط رأسه ووصف منفاه بقصيدة مطلعها:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني في الكرى

ثم قال منها مشيراً إلى النفي :

فارقتها لا عن رضى وهجرتها لا عن قلى ورحلت لا متخيراً

أسعى لرزق في البلاد مشتتاً ومن العجائب أن يكون مقتراً

وأصون وجه مدائحي متقنعاً وأكف ذيل مطامعي متستراً

ثم قال منها يشكو الغربة ومشقاتها:

أشكو إليك نوى تمادى عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهرا

لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى يعفو ولا جفني يصافحه الكرى

أضحي عن الأحوى المريع محولاً وأبيت عن ورد النمير منفرا

ومن العجائب أن يقيل بظلكم كل الورى ونبذت وحدي بالعرا

فلما وقف عليها الملك العادل أذن له بالدخول إلى دمشق، فلما

دخلها قال:

هجـــوت الأكابـــر في جلّقٍ ورعت الوضيع بسب الرفيع

وأخـــرجت مـــنها ولكـــنني رجعت على رغم أنف الجميع

-ولما اعتقل ابن خلدون المؤرخ الشهير في سجن ملك المغرب نظم له ابن خلدون وهو مريض في سجنه ملحمة نحو مائتي بيت يستعطفه فيها؛ منها قوله في مطلعها:

عـــلى أي حال لليالي أعاتب وأي صـــروف للزمان أغالب

كفى حزناً أني على القرب نازح وأني على دعوى شهودي ذائب

وأني على حكم الحوادث نازل تســـالمني طوراً وطوراً تحارب

فسر بها السلطان وكان في تلمسان، فوعده أنه متى حل بفاس حل أسره، ولكنه مات بعد خمسة أيام من وصوله إليها!

-وخرج تميم بن جميل الخارجي على المعتصم، وجيء به إليه أسيراً، فأدخل عليه في يوم موكب وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاماً ودعا بالسيف والنطع، فلما مثل بين يديه نظر إليه المعتصم فأعجبه شكله وقده ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث له. فأطال الفكرة فيه ثم استنطقه لينظر في عقله وبلاغته، فقال: ياتميم إن كان لك عذر فأت به. فقال: "أما إذا أذن أمير المؤمنين -جبر الله به صدع الدين ولم شعث

المسلمين وأخمد شهاب الباطل وأنار سبل الحق- فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسن وتصدع الأفئدة. وأيم الله لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا العفو وهو الأليق بشيمك الطاهرة : ثم أنشد:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً   يلاحظني من حيث لا أتلفت

وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي   وأي امرئ مما قضى الله يُفلت

ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجةٍ   وسيف المنايا بين عينيه مصلت

وما جزعي من أن أموت وأنني   لأعلم أن الموت شيء موقت

ولكن خلفي صبية قد تركتهم   وأكبادهم من حسرة تتفتت

كأني أراهم حين أنعى إليهم   وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا

وإن عشت عاشوا سالمين بغبطة   أذود الردى عنهم وإن مت موتوا

وكم قائل لا يبعد الله داره   وآخر جذلان يسر ويشمت

قال: فبكى المعتصم وقال: إن من البيان لسحراً. ثم قال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل. وقد وهبتك لله ولصبيتك. وأعطاه خمسين ألف درهم.

-ولما توفي الوزير عون الدين بن هبيرة اعتقل الديوان العزيز جماعة من أصحابه وفي جملتهم عماد الدين الكاتب الأصبهاني

المعروف بابن أخي العزيز، فكتب من سجنه إلى عماد الدين بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء أستاذ الدار المستنجدية إذ ذاك في شعبان سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) من قصيدة:

قل للإمام علام حبس وليكم … أولوا جميلكم جميل ولائه

أو ليس إذ حبس الغمام وليه … خلى أبوك سبيله بدعائه[1]

فأمر بإطلاقه.

-ولما اعتقل المتوكل الخليفة العباسي وزيره محمد بن الزيات زاره أحمد الأحول فرآه مكبلاً بالحديد، فقال له: يعز علي ما أرى. فقال ابن الزيات:

سل ديار الحي من غَيَّرها … وعفاها ومحا منظرها

وهي الدنيا إذا ما أقبلت … صيرت معروفها منكرها

---

(١) أشار إلى قضية العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم مع عمر بن الخطاب لما انقطع الغيث في زمن خلافته وأمحلت الأرض فخرج للاستسقاء ومعه العباس والناس. فلما وقف للدعاء قال: اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا، فسقوا. (قلت: ومعلومٌ أن توسل عمر إنما كان بدعاء العباس رضي الله عنهما، كما بين ذلك علماء أهل السنة. انظر: "قاعدة في الوسيلة" لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٦١، تحقيق الشيخ علي الشبل. (س).

إنما الدنيا كظل زائل نحمد الله الذي قدرها

فرماه الخليفة في تنور، فلما دخل فيه قال له خادمه: يا سيدي قد صرت إلى ما صرت إليه وليس لك حامد؟ فقال: وما نفع البرامكة صنعهم؟ فقال له: ذكرك لهم هذه الساعة. فقال: صدقت

وقيل إنه قال للمتوكل وهو في التنور: يا أمير المؤمنين ارحمني. فقال له: الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول الناس. فطلب دواة وبطاقة، فأحضرتا إليه فكتب:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تريك العين في النوم
لا تجزعن رويداً إنها دولٌ دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وسير الأبيات إليه. فاشتغل عنها. ولم يقف عليها إلا في الغد. فلما قرأها أمر بإخراجه، فجاءوا إليه فوجدوه ميتاً، وذلك سنة ٢٣٣هـ (٨٤٧م) وكان قد مضى عليه في التنور أربعين يوماً، وكتب قبل موته على جانب التنور بالفحم قوله:

من له عهد بنوم يرشد الصب إليه
رحم الله رحيما دل عينيَّ عليه
سهرت عيني ونامت عين من هنت لديه

٧ـ أقوال المسجونين من أدباء المغرب والأندلس :

ذلك في المشرق، أما في المغرب والأندلس فقد قال الأدباء أقوالاً ليست بأقل من تلك بلاغة وممن نذكره منهم أبو بكر بن أبي العلاء الشاطبي الأندلسي، فإنه لما أيقن بالموت في سجنه كتب على الحائط بالفحم هذه الأبيات :

ألا درى الصيد من قومي الصناديد	أني أسير بدار الهون مقصود
لا أبسط الخطو إلا ظل يقبضه	كبل كما التفت الحيات معقود
وقد تألب أقوام لسفك دمي	لا يعرف الفضل مغناهم ولا الجود

-وكتب أبو محمد عبد الله في معذرة إلى بعض أصحابه من الأسر في طليطلة :

لو كنت حيث تجيبني	لأذاب قلبك ما أقول
يكفيك مني أنني	لا أستقل من الكبول
وإذا أردت رسالة	لكم فما ألفي رسول
....	....
....	....
حال الزمان ولم أزل	مذ كنت أعهده يحول

-وقال أبو الوليد بن زيدون في سجنه يخاطب ابن جهور :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر
ولا استطلت زمام الليل من أسف إلا على ليلة مرت مع القِصَر
يا ليت ذاك السواد الجون متصل قد استعار سواد القلب والبصر
جمعت معنى الهوى في لحظ طرفك لي إن الحوار لمفهوم من الحور
لا يهنأ الشامت المرتاح ناظره أني معنى الأماني ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم الذكر
وإن يثبط أبا الحزم الرضى قدر عن كشف ضيري فلا عتب على القدر
من لم أزل من تدانيه على ثقة ولم أبت من تجنيه على حذر

-وقال أبو عبد الله محمد بن رشيق القلعي الغرناطي وهو مسجون بدار الأشراف في أشبيلية:

ليس عندي من الهموم حديث كلما ساءني الزمان سررت
أتراني أكون للدهر عوناً فإذا مسني بضر ضجرت
غمرة ثم تنجلي فكأني عند إقلاع همها ما ضررت

-ولما اعتقل عز الدولة أبو مروان عبد الله بن حمادح كتب إلى أبيه المعتصم يقول:

أبعـد السـنا والمعالي خمول — وبعـد ركوب المذاكي كبول
ومـن بعدما كنت حراً عزيزاً — أنـا اليـوم عبد أسير ذليل
حلـلت رسـولاً بغـرناطة — فحـل بها فـيّ خطب جليل
وثقفـت إذ جئـتها مرسلاً — وقبـلي كـان يعز الرسول
فقـدت (المـرية) أكـرم بها — فمـا للوصـول إليها سبيل

فأجابه أبوه من أبيات بقوله:

عزيـز عـلي ونوحي دليل — عـلى ما أقاسي ودمعي يسيل
وقطعـت الـبيض إغمادها — وشـقت بنود وناحت طبول
لـئن كنتُ يعقوب في حزنه — ويوسـف أنـت فصبر جميل

-وقال أبو عبد الله بن الحداد الوادي آشي الأندلسي لما فرْ من المرية وحبس أخوه بها:

الدهـر لا ينفك من حدثانه — والمـرء مـنقاد لحكم زمانه
وعـلمت أن السعد ليس بمنجح — ما لا يكون السعد من أعوانه
والجـد دون الجد ليس بنافع — والـرمح لا يمضي بغير سنانه

فلما بلغت أبياته المعتصم قال: "شعره أعقل منه صدق فإنه لا يتهيأ له صلاح عيش إلا بأخيه وهو منه بمنـزلة السنان من الرمح" ثم أمر

بإطلاقه ولحاقه به.

-وقال أبو زكريا يحيى بن هذيل الأندلسي في معتقله من قصيدة طويلة بليغة:

تــباعد عني منــزل وحبيب وهــاج اشتياقي والمزار قريب

وإني عــلى قــرب الحبيب مع النوى يكــاد إذا اشتد الأنين يجيب

لقــد بعــدت عني ديار قريبة عجبت لجــار الجــنب وهو غريب

أعاشـــر أقوامــاً تقر نفوسهم فللهم فيها عند ذاك ضروب

إذا شــعروا من جارهم بتأوه أجابــته مــنهم زفرة ونحيب

فــلا ذاك يشــكو هــام هذا تأسفاً لكــل امرئ مما دهاه نصيب

كــأني في غاب الليوث مسالم يــروعني مــنه الغداة وثوب

أيــا دهر إني قد سئمت تهدفي أجــرني فإن السهم منك مصيب

إذا خفق البرق الطروق أجابه فؤادي ودمع المقلتين سكوب

وإن طلع الكف الخضيب سحيرةً فدمعــي بحناء الدماء خضيب

تذكــرني الأسحار داراً ألفتها فيشتد حزني والحمام طروب

إذا علقت نفسي بليت وربما تكــاد تفيض أو تكاد تذوب

دعوتك ربي والدعاء ضراعة وأنت تناجى بالدعاء فتجيب

لئن كان عقبى الصبر فوزاً وغبطة ... فإني على الصبر الجميل دروب

-ومن أشهر الذين نظموا في معتقلهم المعتمد بن عباد ملك الأندلس الذي خلع وسجن؛ فمن أقواله في قيوده وقد آلمته :

تبدلت من ظل عز البنود ... بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدي سناناً ذليقاً ... وعضباً رقيقاً صقيل الحديد

فقد صار ذاك وذا أدهماً ... يعض بساقي عض الأسود

ولما ثقف بالحديد قال من أبيات :

قيدي أما تعلمني مسلماً ... أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك واللحم قد ... أكلته لا تهشم إلا عظما

يبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب وقد هشما

ولما فك أهل فاس من سجن (أغمات) ودخلوا لوداعه قال يخاطبهم :

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة ... لقد آن أن يفني ويفنى به الخد

هبوا دعوةً يا آل فاس لمبتلىً ... بما منه قد عافاكم الصمد الفرد

تخلصتم من سجن (اغمات) والتوت ... عليّ قيود لم يحن فكها بعد

من الدهم أما خلقها فأساورٌ ... تلوى وأما الأيد والبطش فالأسد

فهنيتم النعما ودامت لكلكم سعادته إن كان قد خانني سعد

خرجتم جماعات وخلفت واحداً ولله في أمـــري وأمركم الحمد

ومر به سرب قطاً فقال متذكراً بناته :

بكيـــت إلى سرب القطا إذ مررن سوارح لا سجن يعوق ولا كبل

ولم تـــك والله المعيد حسادةً ولكـــن حنيناً أن شكلي لها شكل

فأســـرح لا شملي صديع ولا الحشى وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكل

هنيـــئاً لهـــا إذ لم يفرق جميعها ولا ذاق منها البعد عن أهلها

وإذ لم تـــبت مثلي تطير قلوبها إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل

ومـــا ذاك ممـــا يعـــتزيه وإنما وصـــفت التي في جبلة الخلق من قبل

لنفسي أن ألقى الحمام تشوّفٌ سواي يحب العيش في ساقه كبل

ألا عصم الله القطا في فراخها فإن فراخي خانها الماء والظل

وأنشده أبو بكر الداني قصائد في حبسه ؛ منها قصيدة بليغة أشار فيها إلى انفكاك قيوده وقد أجاد ما شاءت بلاغته قال منها :

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت قيـــودك منهم بالمكارم أرحما

عجـــبت لأن لان الحديد وقد قسوا لقد كان منهم بالسريرة أعلما

ســـينجيك مـــن نجى من الجب يوسفاً ويؤويك من آوى المسيح بن مريما

وسمع ابن حمديس الصقلي بعض أبيات المعتمد في اعتقاله فأجابه قائلاً :

أتيــأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدراري في البروج تدور

ولما رحلتم بالندى في أكفكم وقــلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير

-ولما حبس المنصور بن أبي عامر المعافري حاجبه جعفر بن عثمان المصحفي كتب إليه من السجن يستعطفه بقوله :

هبني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادني نحوك الإذعان والندم

يا خير من مدت الأيدي إليه أما تــرثي لشيخ رماه عندك القلم[1]

بالغت في الحط فاصفح صفح مقتدر إن المــلوك إذا ما استرحموا رحموا

فراجعه المنصور بقوله :

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم تــبغي التكرم لما فاتك الكرم

أغــريت بي مــلكاً لولا تثبته ما جاز لي عنده نطق ولا كلم

فايــأس من العيش إذ قد صرت في طبق إن المــلوك إذا ما استنقموا نقموا

نفسي إذا سخطت ليست براضية ولــو تشفع فيك العرب والعجم

---

(١) خير من مدت له الأيدي هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ . (س)

-وأمر المنصور بتكبيل فتى انتهب مال الخزينة وحمله إلى السجن وحض الضابط على امتحانه والشدة عليه، فلما قام أنشأ يقول:

أواه أواه وكـــم ذا أرى أكـــثر مـــن تكـــرار أواه

مـــا لامـــرئ حول ولا قوة الحــــول والقــــوة لله

فقال المنصور: ردوه. فلما رد قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت. فقال: حلوا عنه كبله، فلما حل عنه أنشأ يقول:

أمـــا تـــرى عفـــو أبي عامر لابـــد أن يتـــبعه مـــنّة

كذلـــك الله إذا مـــا عفـــا عـــن عـــبده أدخلـــه الجنة

فأمر بإطلاقه وسوغه ذلك المال وأبرأه من التبعة فيه !

-واعتقل المنصور أيضاً الوزير الكاتب أبا مروان عبد الملك بن إدريس الخولاني، فمن قوله في معتقله:

يـــأوي إليـــه كل أعور ناعقٍ وتهـــب فيه كل ريح صرصرِ

ويكـــاد مـــن يرقى إليه مرةً من عمره يشكو انقطاع الأبهر

وقوله أيضاً:

شحط المزار فلا مزار ونافرت عيني الهجوع فلا خيال يعتري

أزرى بصبري وهو مشدود العرى والآن عودي وهو صلب المكسر

وطوى سروري كله وتلذذي بـــالعيش طي صحيفة لم تنشر

هـــا إنمـــا ألقى الحبيب توهماً بضمير تذكاري وعين تذكري

عجباً لقلبي يوم راعتني النوى ودنـــا وداع كيـــف لم يتفطر

-وسجن المنصور أيضاً الشاعر أبا عبد الله محمد بن مسعود الغساني في مطبق مع الطليق القرشي وهو غلام وسيم فقال:

غدوت في السجن خدناً لابن يعقوب وكـــنت أحســـب هذا في التكاذيب

راقـــت عـــداتي تعذيـــبي وما شعرت إن الـــذي فعلوه ضد تعذيبي

رامـــوا بعـــادي عن الدنيا وزخرفها فكـــان ذلـــك إدنائي وتقربي

لم يعلموا أن سجني لا أبا لهم قد كان غاية مأمولي ومرغوبي

ثم أفضى الأمر بينهما إلى أن هجاه بقوله:

ولي جـــليس قـــربه مـــني وبعـــد الأمـــاني كذبـــا عني

قـــد قذيـــت من لحظه مقلتي وقـــرحت مـــن لفظـــه أذني

هـــون لي في السجن من قربه أشـــد في السجن من السجن

لـــو أن خـــلقاً كان ضداً له زاد عـــلى يوسف في الحسن

إذا ارتمـــى فكـــري في وجهه ســـلط أبطيـــه عـــلى ذهني

كأنمـــا يجـــلس مـــن ذا وذا بـــين كـــنيفين مـــن الـــنتن

وقال يخاطب المنصور من السجن:

دعوت لما عيل صبري فهل يسمع دعواي المليك الحليم

مولاي مولاي ألا عطفة تذهب عني بالعذاب الأليم

إن كنت أضمرت الذي زخرفوا عني فدعني للقدير الرحيم

فعنده نزاعة للشوى وعنده الفردوس ذات النعيم

-وقال ابن مرزوق في نكبته بتلمسان قصيدة استهلها بقوله:

رفعت أموري لباري النسم وموجدنا بعد سبق العدم

٨ ـ أقوال المعاصرين وأعمالهم في سجونهم حتى أول الحرب العامة:

لقد مر في الكلام السابق أقوال المشاهير وأعمالهم في سجونهم ومعتقلاتهم وبقي الكلام عنهم في هذا العصر وهاك ما اتصلت إليه يد البحث عنهم

-لما سجن أحمد باشا الجزار والي عكا الشاعر الحمصي مخايل البحري سنة ١٧٨٨م نظم في سجنه قصائد لم يحضرنا منها شيء الآن

-وكان الشيخ محمد الهلالي الحموي قد شكاه رجلان اسمهما (برهان وحسن) من أعضاء مجالس حماه فسجن فيها وكتب إلى متصرفها من سجنه يقول مورّياً:

أنا لست أول طائرٍ في حيّز القفص انسجن

وهـــلال فضــــل عـــنه قـــد عميـــت عيـــون ذوي الفطن
في بدلـــــــة عميـــــــاء في أعيانهـــا انقـــلب الـــزمن
بـــلدٌ بـــه (الـــبرهان) خافٍ والقـــبيح بهـــا (حســـن)

-وقال أديب بك إسحاق لما سجن في الإسكندرية سنة ١٨٨٢م ملماً بقول ابن عنين الدمشقي الذي مرّ كلامه في أثناء المقالة[1] :

لـئن حبست بلا ذنب ولا حرجٍ فمــا يراعي إلى غير الهدى انطلقا
ولي فـــؤاد أمين قد صفا ووفى ولي لســـانٌ بمحض الحق قد نطقا
ما للمؤذن لم يسجن بأرضكم إن كان يسجن فيها كل من صدقا

-ولما نفي المرحوم محمود سامي باشا البارودي إلى جزيرة سيلان مع عرابي باشا بقي في منفاه سبعة عشر عاماً فذاق العذاب ألواناً وأبدى جلداً حمله على تعلم اللغة الإنكليزية وتعريب بعض الكتب عنها. وكان مع كل ذلك يمرّن قريحته في النظم والنثر فكاتب كثيراً من أصدقائه، ومن أبلغ ما قرأت له نونيته المشهورة التي قال في مطلعها :

محا البين ما أبقت عيون المهى مني فشـــبت ولم أقض اللبانة من سني
عـــناءٌ ويأس واشتياق وغربة ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن

---

(١) وهذا قوله: فعلام أبعدتم أخا ثقــة لم يقترف ذنباً ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا

فإن أكُ فارقت الديارَ فلي بها ... فــؤادٌ أضلته عيون المهى عني

إلى أن قال:

فيــا قلب صبراً إن جزعت فربما ... جرت سنحاً طير الحوادث باليمن

فقد تورق الأغصان بعد ذبولها ... ويبدو ضياءُ البدر في ظلمة الوهن

ومنها :

تحملت خوف المنّ كل رزيئة ... وحمــل رزايا الدهر أحلى من المن

وعاشرت أخداناً فلما بلوتهم ... تمــنيت أن أبقى وحيداً بلا خدن

ومن بليغ قوله هذه المقطوعة :

يـــا ذكـــرة أبصـــرتُ في ... مـــرآتها صـــور الـــتمني

عـــلقت حـــبالة خاطـــري ... فيهـــا بمكحـــولٍ أغـــن

ومن رشيق أقواله في قصيدة:

ألفتُ الضنى ألف السهاد فإن سرى ... بيَ البرق غالتني لذاك الغوائل

من العار أن يرضى الفتى غير طبعه ... وأن يصحب الإنسان من لا يشاكل

ولما نميت إليه البشارة بالعفو عنه سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وقع بين الشك واليقين فقال:

أحـــس في نفسي دبيب المنى وألمـــح الشـــبهة في خاطري

-ولما نفى السلطان عبد الحميد العثماني ولي الدين بك يكن إلى بر الأناضول لبث هناك سبع سنوات يتجشم فيها أعباء المشاق ولما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨م عاد إلى الأستانة فمصر وله في سجنه مؤلفات وتعاليق وأشعار بديعة طبع بعضها، ومن غرائب ما جرى له في السجن أن بعضهم أشار إليه أن يكتب ورقة إلى ناظر الضابطة ليشفع له عند السلطان فيفرج عنه فكتب إلى ذلك الصديق :

شـــهد الله مـــا تذللت يوماً لـــنوالٍ أو رفعـــة أو مقـــام
غـــير أن الـــزمان يأتي بقوم يســـتطيبون ذل نسل الكرام

ومما نظمه في الحنين إلى مصر قوله من قصيدة يخاطبها بها :

عـــلم الزمان قلاه ليس يذلني فســـعى يحـــاول ذلتي بقلاك
ولـــئن حييتُ على نواك فإنما أحيـــا لآمـــالي بـــأن ألقـــاكِ
وأرى كـــبيرات الخطوب صغيرة وأرى هلاكـــي لا أخاف هلاكي
وتخـــاذل الأنصار عني زادني حِولاً فجدَّ مع الزمان عراكي
زادت تـــباريحي فزدت تطرّباً وشكا سواي فعبت وجد الشاكي
لـــو أن من شدوا قيودي حاولوا يومـــاً فكاكي ما رضيت فكاكي
قد سرك الدهر العجيب وساءني فضحكت أنت وبتُّ وحدي الباكي

أهـــاك بعدي بالجديد من المنى يـــا ليــت أهـــاني كما ألهاكِ

ومن قوله وهو سائر إلى سيواس:

أيهـــا الركب سر فإن أمامي لـــبعاداً مـــرّاً وعيشـــاً أمرّا
غـــربة هذه وقد كنت أدري أن سأرمى بها لدن كنت حرا
فالفحي يا رواسي الأرض ناراً وأفيضـــي فدافد الأرض بحرا
وانفحي يا ريح الشمال سموماً واقذفي يا سوائر الأفق صخراً
أنـــا أرضى بذا لحب بلادي وأرى في سبيلها الموت فخراً

ومن رشيق نظمه قوله من قصيدة بديعة :

فـــؤاد دأبــــه الذِكَــــرُ وعــــين مـــلؤها عـــبرُ
ونفـــــس في شــــبيبتها وجســــم مســـــه الكـــبر
وآمــــــال مضــــيَّعَةٌ ووقــــتٌ كلـــــه هــــدرُ
وعيـــش عذبـــهُ مضـــض وعمـــر صـــفوهُ كـــدر
أمـــا يـــا ليـــل مـــن صبح لمــن ســـهروا فينـــتظروا
جفـــون الـــناس هاجعـــة وجفـــني ضـــافه الســـهرُ
إذا سُـــورٌ تولـــت مـــنـــ ـــك عـــني أقبـــلت سورُ
أفانيهـــــا فتفـــــنيني وأطويهـــــا فتنتشــــــر

ومنها :

سأقضـــي العمـــر في أســـرٍ ويســـعد بعـــد مـــن أسروا

أرى ســـيواس تغمـــدني كـــأني صـــارم ذكـــرُ

صـــدأت بهـــا وأحســـبني سأصـــدأ مـــا جـــرى العمُرُ

أيخذلـــــني وإخـــــواني وينصـــر خصـــمنا القدرُ[1]

-وسجن إبراهيم بن بطرس كرامه الحمصي الأصل في جزيرة مدلّلي (مدلين) فوضع ذيلاً لديوان والده بطرس كرامه شاعر الأمير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان ونظم هو أشعاراً منها :

ألا يـــا بارقـــاً أهدي سلامي وأشواقي لمن هجري استباحَهْ

وحدّثـــه بـــأني ذبـــت شوقاً وأن الـــبين أكســـبني وشاحهْ

-ولما نفي الشيخ محمد عبده الشهير إلى سورية على أثر حوادث عرابي باشا في مصر شرح في منفاه (نهج البلاغة) و(مقامات البديع الهمذاني) ووضع بعض المقالات واستنسخ كثيراً من الكتب منها كتاب (البصائر النصيرية) في المنطق .

-ولما فرّ رزق الله حسون إلى أوربة كان يتردد إلى أمهات العواصم

(١) لا يجوز الاعتراض على قدر الله. ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾. والقدر لا يخاصم أحداً ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. (س)

بين إنكلترا وفرنسة وروسية. فأنشأ جريدة (مرآة الآحوال) سنة ١٨٥٤م وسبك حروف المطابع المعروفة هناك وأصلحها بخطة الجميل ووضع رسالة في الطباعة والحروف العربية. وأنشأ مجلة (رجوم وغساق) ومجلة (حل المسألتين الشرقية والمصرية) وطبع (أشعر الشعر) الذي نظمه من أسفار القدماء في التوراة. وكتاب (النفثات). وغيرها من الكتب الكثيرة.

وله في اعتقاله قصائد ومقاطيع كلها عواطف تنمُّ عن حنينه إلى وطنه وأسرته منها قوله في ولده ألبير:

ألــبير إني لمن وجدي ومن كلفي ... أبيت ذا لوعةٍ في الروح تبقيها
وهل ترى نافعي روح تعذبني ... وكــل يــوم أليم البين يفنيها
لولا رجائي بربي ألتقيــك لما ... رغبت في العيش والدنيا وأهليها

وقوله في ولده هذا وابنتيه :

أحســـبني ميـــتاً إذا لا أرى ... بجــانبي ألــبير مــاري وروزْ
لكــنني مــن لوعــتي لم أزل ... محــترقاً كــالحيّ نــاراً يجوز

وقوله في اعتقاله من قصيدة :

في السجن واليمّ أو القفر أو ... فــوق بريد بتُّ مذ ربع عام
ولست أدري بعد ذا ما الذي ... يجــره لي خوض موتٍ زؤام
هيهــات أن يــرقد ذو لوعةٍ ... وجداً وذو خوفٍ من الانتقام

-وسجن جبرائيل عبد الله الدلال الحلبي لأنه نظم قصيدة (العرش والهيكل) التي مطلعها :

جاءت بآيات غدت تهذي بها زعمت وجود الحق في تهذيبها

ومنها :

كـل الأنـام وإن تباين حالها فالمال جُلُّ القصد من مطلوبها

وذلك بعد أن عزل من منصبه أيضاً فعانى المشقة سنتين في غيابات السجن وكان له في وصف حالته قصائد شائقة منها قوله في إحداها يخاطب السلطان :

فـاعف عني فأنت للعفو أهل وأقـل عـثرتي بفك قيودي

وأعـدني لحسـن رأيك إني خـادم صـادق وخير ودودِ

فالوشـايات والسعايات من أعـداي بادي ضغائن وحقود

ومنها قوله يستبطئ زيارة ابن شقيقته قسطاكي بك الحمصي :

تجاوزت في الصدّ حد الزيادة فـلا تجعل الهجر خلقاً وعاده

فعـندي إليك اشتياق شديدٌ وقلبك يشهد هذي الشهادة

وعوّدتـني مـنك قرباً ووداً وما يطلب القلب إلا اعتياده

عهدتـك ذا خُـلق جيـد لذلـك أطلب منك الإجادة

فـإن أنـت أتحفتني بالحضور فقـد أدرك الخال أقصى السعادة

وتوفي .. سجيناً سنة ١٨٩٢ م .

-ونظم سليم بك عنحوري شاعر الفيحاء الشهير قصيدة مطلعها :

القول قول أفاضل الأمجاد والفعل فعل أسافل الأوغادِ
والثوب ثوب مملّك ذي عزّة والنفس نفس مشعوذٍ قرّاد

إلى أن قال :

ما كل أحدب باتر لا والذي رفع الطباق السبع دون عماد
كلا ولا كل امرئ ندعوه إبـ ـراهيم صار حليف دين الهادي

فوشى به بعضهم أنه يعرض بأديب بيروت إذ ذاك وكانت بينهما مناقشة سابقة. فحوكم الناظم ونقل إلى السجن فقال وهو يسير إليه مرتجلاً في مربعة ذات ثمانية أدوار منها :

تذاكرتم فأعطيتم قرارا يمهد في الجحيم لكم قرارا
ألا تخشون إن سلب القرارا سؤال الحق في يوم الحساب
بمحكمة قد امتلأت فسادا بها الجور التقى أهلاً فسادا
أضاع رجالها فيها السدادا فصارت مثل محكمة الكلاب
على القانون يبنون المضابط ويحشون الدفاتر بالضوابط
ولكن ما لها والله رابط سوى الدينار ذي اللون الترابي

ولما دخل السجن أتمها على هذا النمط. ونظم كثيراً غيرها من القصائد التي عرفت بها قريحته الوقادة منها قوله :

ما كنتُ أول طائر مترنمٍ ... حبسوه في الأقفاص للتغريد
وألوف أغربةٍ تطير نواعباً ... بين السماء وبين سطح صعيد
إن يحبسوا شخصي الضئيل فخاطري ... في الجوّ أو في البحر أو في البيد
متجوّلاً متحفزاً متربعاً ... بين الصوارم والطلى والغيد
لي الهمّة الشمّاءُ لا تثني الظبى ... عزماها عن فعل كل حميد
ما الراية البيضاء تنشرها على ... طود الفخار مآثري وجدودي
والذروة القعساء تلمس راحتي ... فيها السماك وطالعي بصعود
ولسوف ينضيني الزمان كمقضب ... قد أغمدوه مخافة التجريد
فليهنأنّ موازري ومناصري ... وليبكينَّ مناصبي وحسودي

وله من قصيدة أخرى عرّض فيها بخصمه منها :

كن يا زمان كما تشاء فإنني ... راضٍ بما تقضي يدُ الحدثان
قاوم أثر أفتن أدم قهري أطل ... حبسي وضع قدري أدم أحزاني
لم تلقني والله إلا ثابتاً ... رضوى تهاب ولا يهاب جناني
مهما تقلبت الدُّنى فأنا أنا ... صبري حسامي والثبات سناني
والحق يحزنه سكوتيّ مطرقاً ... والصدق يعجبه انطلاق لساني

ولما كان الشيء بالشيء يذكر رأيت نشر شيء من قصيدة له بعنوان (حكاية حال) وصف فيها السجن وما ينشر من الشر والخير بين المسجونين بقوله:

طرحوه في السجن بين مئاتٍ ... مـــن رجـــالٍ زعانفٍ سفهاء

حرّضوه على ارتكاب الدنايا ... والمعاصي حتى بسفك الدماء

كــــان قــــبلاً يخاف شرقة مال ... أصــــبح اليوم أعظم الأشقياء

تلك حال السجون من ألف عام ... في بـــــلاد الجهّـــال والأغبياء

إنمـــا الســـجن زاجـــر لذويه ... عـــن فعال الطغام والأرذياء

فيـــه عـــلمٌ صنائع واشتغال ... يكســـب المرء شيمة الأدباء

محكم الوضع متقن الصنع زاهٍ ... صـــالح العيش جالب للهناءِ

فيـــه كتب تهذّب الخلق قسراً ... فيـــه طـــب يزيل أعضل داء

فيـــه قـــوم ليرشدوا كلّ غاوٍ ... بحديـــث ذي حكمـــةٍ وجلاء

هكـــذا السجن في بلاد حباها ... مالكوهـــا ذرائـــع الارتقـــاء

لا كسجن حوى جحيم شرور ... فيـــه تـــنمو نقائص الأدنياء

-ولما سجن سليم أفندي سركيس سنة ١٨٩٧م في مصر أصدر جريدته (المشير) من سجنه وأول عدد ظهر منها كان مشتملاً على قصيدة للشيخ نجيب الحداد في وصف السجن منها قوله :

إنما السجن كالطريق يسير الوغـــ ... ـــد فيـــه كما يسير الهمامُ

وهو مثل الغدير يشرب منه الذئـ ـــب حيناً ويشرب الضرغامُ

-وسجن الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير (اللواء) في مصر وذلك سنة ١٩٠٩م فكان يكاتب جريدته وهو في سجنه .

-وحكمت المحكمة العرفية العثمانية على رضى توفيق بك فيلسوف الأتراك بالسجن خمسة عشر يوماً لأنه ألقى محاضرة دون أن يستأذن الحكومة. فكتب مقالات من سجنه قال في بعضها : "إنني أدرك أنه يجب على كل إنسان أن يحب موطنه أكثر من حبه لوالديه وأولاده وكل شيء آخر. وهكذا أنا أتفانى في حبه لأنني إلى الآن لم يدر في خلدي الاهتمام بأولادي وأسرتي، وقد غادرتهم في بيت حقير بدون معين ولا نصير. إنني أعلم أنه يجب الاجتهاد بإقناع الموطن بالحق. وإذا لم يقتنع فيجب الإذعان لأمره. وهكذا فعلت. ففضلاً عن أنني لم أدافع عن ذاتي رأيت قصاصي قليلاً. وليس هذا بقصاص بل هو سرور وهناء وليس من شأنه إلا إثارة غيرتي وتكثير حكمتي ومنفعتي". وبهذه المناسبة نذكر قصيدة بعثها إليه صديقه .. رفيق رزق سلوم الحمصي نزيل الأستانة إذ ذاك قال في مطلعها :

السجن أبلغ ما ألقيت من خطب فاخطب بنا صامتاً في عشك الذهبي

ففـــي السكوت معانٍ ليس يعربها قول وما القول إلا صورة الأرب

وختمها بقوله :

فـــانعم بسجنك إن السجن مفتخر ··· فذكر (سقراط) لم يبرح من الكتب
وذا صـــديقك (غليـــلو) يجـــادلهم ··· والأرض تمشي على مهل بلا تعب
يفديـــك بالروح أحرار لقد عشقوا ··· فيـــك الفضيلة من تركٍ ومن عرب

-وسجن يوسف الحاج ورجل .. يلقب بالميسي لأنهما اتهما بتعليق القصيدة السينية المشهورة في أسواق دمشق ومطلعها :

دع مجـــلس الغيـــد الأوانس ··· وهـــوى لواحظهـــا النواعس

والثاني نفي إلى جزيرة لمني وتوفي فيها وكان ذلك في عهد حمدي باشا والي سورية .

-وسجن الشيخ أحمد النبهاني المصري الشاعر ومصطفى السباعي الحمصي الخطاط بسبب قصيدة من نظم الأول تكرر فيها ذكر الوطن والحرية وبقيا نحو شهرين في الاعتقال وصودرت أوراقهما .

-ولما كتب محمد بك فريد المصري المتوفى أخيراً مقدمة حماسية لكتاب (وطنيتي) حكم عليه بالسجن نصف سنة (١٩١١م) وفي السنة التالية خطب منتقداً أعمال الحكومة فسافر إلى الأستانة وحكم عليه غيابياً بالسجن مدة سنة مع الأشغال الشاقة، فبقي متغيباً، واغتنم تلك الفرصة فكتب مذكراته وتقاريره المشهورة.

-وللأمير عبد القادر الجزائري الشهير المتوفى سنة ١٨٨٨م مؤلفات وأشعار كثيرة في اعتقاله في دمشق منفياً إليها سنة ١٨٥٦م.

-ولما نفي عرابي باشا المصري إلى جزيرة سيلان سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) وضع فيها مذكراته ولا سيما ترجمة حياته وحوادثه في مصر.

-وللسيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي آثار اجتهاد وكتب وضعها عند سجنه ومصادرته .

-ولمدحت باشا مذكرات وضعها على أثر نفيه إلى الطائف في البلاد العربية .

-وهكذا كان للشيخ جمال الدين الأفغاني الذي نبا به موطنه فقضى عمره متنقلاً في أوربة والشرق ينثر درر الخطب وينظم عقود المقالات والمؤلفات في الصحف التي أنشأها .

-ولم يكن السيد عبد الله نديم المصري بأقل عناية ممن ذكر بخدمة الأدب في منفاه الذي تكرّر أكثر من مرة .

-ولما أبعد إبراهيم بك المويلحي مع الخديوي إسماعيل إلى أوربة أنشأ بعض الصحف وساعد السيد الأفغاني بصحفه .

-وللشيخ أمين الجندي الحمصي قصائد ومقاطيع في حبسه بليغة منها قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

عرج أخا البأساء نحو بني العلى ... والثم ثرى أعتابهم متذللا

ومنها :

نعم الخلافة في قريش أصلها ... وبها لقد جاء الحديث مسلسلا

-وكذلك بطرس كرامه الحمصي أبعد عن موطنه لأسباب فكان بعده سبباً في شهرته ووضع دواوين شعرية وبعض الكتب.

-وكان محمد بيرم التونسي قد هجر تونس واشتهر في القطر المصري حيث أقام صارفاً بقية حياته ووضع مؤلفاته وكتب مقالاته الشهيرة.

-ولما كتب الشيخ جميل صدقي الزهاوي[١] في بغداد بشأن المرأة والحجاب نكب بعزله عن منصبه وزجه في المطبق فأرسل أبياتاً إلى زوجته منها :

أبثينُ إن أدنى العدوّ حمامي ... بمسدس يوريه أو بحسام

فتجلدي عند الرزية واحسبي ... أني اجتمعت إليك في الأحلام

والصبر أجدر إن ألمت نكبة ... بكريمة يسنموها لكرام

أبثين إن أودى (جميلك) خابطاً ... بدم لـه أهريق فوق رغام

فتدرعي للخطب صبراً وامسحي ... من أدمع فوق الخدود سجام

أنا لست أول هالك في قومه ... يرجو تقدمهم مع الأقوام

يأبى لهم هذا الجمود ولا يني ... يسعى لينقذهم من الأوهام

---

(١) له أشعار سيئة في السخرية بالدين وبالحجاب الإسلامي، وقد رد عليه العلماء في حينها.

(س)

رمت الحياة لهم وراموا مقتلي ... شتان بين مرامهم ومرامي[1]

-ولما سجن .. الشيخ اسكندر العازار منذ سنوات نظم في سجنه قصيدة قال فيها :

لا شيء عن طلب الإصلاح يثنينا ... لو أن في سجنكم شابت نواصينا

-وسجن شاعر أميركي مدة خمس سنوات لأنه اختلس دريهمات لقرينته وهو في حاجة إليها. فآخر أبيات قالها في سجنه لما تمثل له خيال امرأته ليلاً ما عربته مجلة المقتطف يخاطب زوجته :

زارني طيفهـا ومـدت يديها ... ودموعـي تفيض شوقاً إليها

غـير أني رأيـتها كخيـال ... غـلب الهـم والعناء عليها

يـا الهـاً لم أدعـه في حياتي ... احفظـنها فهـي في النائبات

حفظت اسمك العظيم وكانت ... قـدوة القانـتين والقانـتات

احفظـنها وإنـي لـك عبد ... ولسـاني بحمـد عدلك يشدو

فمضـى الطيف والسبات عراني ... هل جواب الدعاء بُعْد وصَدُّ

-ومن أغاني المسجونين في سيبيرية (روسية) ما عربته جريدة المحبة وهو:

---

(١) التقدم المنشود لا يكون إلا بالتمسك بأحكام الإسلام، خاتم الأديان. أما بغير ذلك فما هو إلا الضلال والفساد. (س)

ما عدت يا وطني ترابي دائساً ... تـــرباً عـــليه تمرنت أقدامي
أصبحت في المنفى وبعد معزتي ... صالت على جسمي يد الآلام
فلسوف يبكي اليوم فوق سطوحه ... ويرن صوت صداه في الآجام
يــبكي وسمعي غائب عنه فيا ... حــزني وطول تعذبي وهيامي

-ولنابليون بونابرت في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة مفكرات ومقالات لا تزال تنمُّ عن ذكائه وصحة آرائه .

-ولما حكم المجلس الأعلى الفرنسي على المسيو بول ديروليد الخطيب الشهير الأفرنسي بالإقصاء عن موطنه واعتقاله سنة ١٩٠٠م حمل إليه فرنسوا كوبه شاعر بلاده علماً مزركشاً بأيدي نساء مقاطعة (الشارنت) وأنشده قصيدة جاء من تعريبها بجريدة (الأرز) قوله :

علق على جدران سجنك راية ... قـــد قدست بأنامل الغادات
غادات (شارنت) لهنّ على السهى ... شـــرف يكلل هامة السادات
لما رأت ظلمات سجنك أرسلت ... قوس السحاب يبدّد الظلمات
علم رمزت به إلى المجد الذي ... سجنوه مع علم على الرايات
يـــندك منه السجن بعد هنيهة ... وتقلــهُ ظفـــراً على الهامات

إلى كثير من أمثال هذه الأقوال وفيها عظات وعبر رائعة .

٩ - أقوالهم وأعمالهم في أثناء اعتقالهم بهذه الحرب العامة :

من الذين منوا بالاعتقال الطويل وتنقلوا من محل إلى آخر في نفيهم شاعر الشام الشهير الشيخ عبد الحميد الرافعي الطرابلسي ؛ فإنه سجن في دمشق بدعوى فرار ولده سمير أفندي من الجند التركي إلى الجند العربي، ثم نفي إلى المدينة المنورة وسجن فيها مدة، ثم أعيد إلى دمشق مسجوناً وأفرج عنه مدة، ثم نفي إلى قرق كليسة إلى أن عاد إلى موطنه طرابلس الشام حيث يقيم الآن، وله في معتقلاته قصائد بليغة طويلة نقتطف منها أمثلةً تدل على غرضه من كل منها ؛ فمن قوله في قصيدة نظمها في سجن دمشق من قصائده الدهريات :

لـئن نك لاقينا الشدايد كلها ... وصالت بقرضاب علينا وسمهري

فلم ينتزعنا حادث الدهر قيمة ... ولم تـنأ عـنا شيمة المتصبر

ولا حط من أقدارنا النفي إنما ... هـو الدر منظوماً كدرٍ منثر

وما نحن في تلك النوائب كلما ... ذكـت نارها الأكعود بمجمر

فإنـا أنـاس لا نـذل لمعتد ... ولو سد عنا كل ورد ومصدر

ومهما طغى صرف الزمان وهزنا ... بريح عقيم من بلاياه صرصر

نسـلم للمولى الكريم أمورنا ... ونرضى بما يقضيه دون تضجر

ولا نشتكي ضيماً لغير جناية ... فمـا يرفع المقدور غير المقدر

وكم من كرام قد أصيبت مصابنا　　　وشدت عليها النائبات بخنجر

ولكنها ملت وما زلت صابراً　　　فصـــح بذاك الفضل للمتأخر

وقوله من قصيدة في سجن المدينة المنورة مطلعها:

ظـــلموني ولم أكن أهل ذنب　　　فعـــلى الظـــالمين لعـــنة ربي

شـــتتوني عن الديار وجاروا　　　قُـــتل الجائرون هم شر حزب

قيـــدوني لكـــن بقيـــد ثقيل　　　كـــل منه صبري وجسمي وقلبي

حبســـوني لكن وحيداً فريداً　　　لا أنيـــس ولا جـــليس بجنبي

فـــر ابني من جيشهم ولو أني　　　كـــنت أدري منعته كل درب

فاســـتباحوا جزاي عنه كأني　　　طفل شاةٍ قد رام إنصاف ذئب

ومنها في وصف الأتراك:

حاربونـــا بل حاربوا الله فيما　　　أحدثـــوه ما بين تركٍ وعرب

والتقيـــنا من ظلمهم ما التقاه　　　آل بيـــت النبي من آل حرب

كـــل دار قد أصبحت من أذاهم　　　(كربلا) فهي في بلاء وكرب

ومنها في مخاطبة قومه:

مـــا لكم يابني الكرام سكوتاً　　　لا تلـــبون والفـــتى من يلبي

نبهوا أعين العزائم وأصغوا ... لنداء من الضمائر يصبي

إلى أن قال لهم:

....

أفلا تزمعون بعض احتجاج ... لا أقول امضوا لحرب وضرب

إن شق العصا حرام ولكن ... طلب الحق مقنع كل ندب

قد تصان الحقوق في رقة القو ... ل كما تحرس العيون بهدب

ومن لطيف ذلك قوله في حبس دمشق بعد رجوعه من المدينة ووصفه التضييق عليه فيه:

أيا زمن الحبس في جلق ... أطلت عذابي ولم ترفق

رمتني بأعماقه أولاً ... يداك ولم تك بالمشفق

وثنيت حتى دهاني البلاء ... بفاقرة شيبت مفرقي

ولا سيما حين ألقيتني ... وحيداً (بزندانه) الضيق

بعثت إليّ ببرغوثة ... ومالي (برّ) و(غوث) بقي

وسلطت ما شئت من قمله ... عليّ ومن بقه لا بقي

وصال البعوض بخرطومه ... ولا كلّةٌ لي بها أتقي

وقد زاد طنبورها نغمة ... سقوط الرتيلا على مرقي

فرقت وأشفقت من قرصها ... ولو كنت في الحرب لم أفرق

وقـــد طال ليلي بذاك العناء كـــأني في الناس أشقى شقي

ولما نضا الصبح سيف الضياء وطـــرفي بالـــنوم لم يعـــلق

أتـــاني الذبـــاب فمن أسود تســـابق نحـــوي ومن أزرق

إذا زدت في طـــــرده زادني هجومـــاً وثـــلث بالأبـــلق

ثم انتقل بعد أبيات إلى السجان يخاطبه بقوله :

أغـــثني بـــرفعي من ذا المكان ولـــو لســـعير لظـــى المحرق

وإلا إلى الشـــنق إن شـــئتم فغـــير بـــني العرب لم يشنق

وبعد أبيات قال بلسان السجان يجيبه :

وعمـــا قريب يكون السرى لقـــرق كليســـا فـــلا تـــلق

ســـتنفى إليهـــا كما قد نفي ســـواك ومـــن يصطبر يلتق

ومن قوله في قصيدة يصف فيها منفاه في قرق كليسا :

ولكـــن الزمـــان له اعتـــداء على مثلي وإن أك ما اعتديت

رمـــاني فاتقيت بدرع صبري فلولا حسن مصطبري قضيت

وحـــاول أن أقر بضيم نفسٍ تعـــز عـــليّ لكـــني أبيـــت

ومـــذ أعياه كسري إذ رآني كـــلدنٍ كيفمـــا شد التويت

أهـــاج الظـــالمين لقصد ذلي وهـــل للذل غير الحبس بيت

فذلـــك (منـــزل البلوى) إليه على حكم الزمان لقد أويت

و(مقـــبرة الحيـــاة) فمن أتاه يـــود لـــو أنـــه يا ميّ ميت

وأنكـــى مـــا يكون عليّ فيه شمـــات الكاشحين بما التقيت

وقـــد سمـــاه يوسف إذ دراه (بتجربة الصديق) كما رويت

ولكـــن لم أجـــد حبساً إليه يـــلوذ من الصحاب من اجتبيت

فســـجن كـــل آن في مكان كـــأني كـــل ذنب قد أتيت

فمن (شام) أساق إلى (حجاز) وأرجع في القيود كما سريت

وطـــوراً نحو أرض (الروم) أزوي وكـــم حبس هناك به انزويت

-وقال عمر حمد البيروتي مرتجلاً هذين البيتين لما ركب العجلة من عاليه إلى سدة المرقبة (المشنقة) في بيروت وأودعهما صديقاً له في سجن عالية وأوصاه أن يحفر على ضريحه :

خطـــوا على قبري بني وطني بيـــتاً يـــردده فـــم الحقـــب

هـــذا ضـــريح عشيق موطنه هـــذا شـــهيد محـــبة العرب

-وقال محمد أفندي صالح الصمادي الحسني النابلسي وهو سجين بلاد الترك من قصيدة:

مـــا راعني أنني أغدو صريع وسط السجون ومصلوباً على النصب

لم يــلهني عــن بني قومي وعن وطني وعــد الطغــاة وبــذل المال والرتب

إن يقبض الحر أو يبقى فإن له ذكــراً يخــلد في الأســفار والكتب

وقال من قصيدة أخرى:

قــد أوجس الأتراك منا خيفة فاستحســنوا إطفاء كل منار

فــزججت في قعر السجون وما دروا أن المحــابس جــنة الأحرار

إن كــان ذنبي أن أعلم أمتي فاســتكثروا من هذه الأوزار

إن يصلب الأعداء جسماً فانياً فالروح تأوي مسكن الأبرار

تــبقى البلاد إذا تعهد أمرها عــدل ولا تبقى مع الأشرار

-ونفي شاعر دمشق الشهير سليم بك عنحوري إلى بر الأناضول من كانون الأول سنة ١٩١٧م إلى آخر شهر نيسان سنة ١٩١٩م إذ عاد إلى وطنه فمني بإحراق جميع كتبه ومؤلفاته وأوراقه المخطوطة وبينها نفائس؛ مثل (عكاظ الأدب) و(دواوينه الشعرية)، فنظم في معتقله كثيراً من القصائد والمقاطيع حتى اجتمع لديه منها ثلاثة دواوين؛ أولها (فلسفة الخيال) والثاني (نهضة الشعر) والثالث (مرآة الانقلاب)، وهذا الديوان كله أوصاف رائعة للحرب وإرهاقها الجسوم وإزهاقها الأرواح. وكنا نود نشر أمثلة منها لولا تخلف جواب ناظمها عنا إلى اليوم.

-ولما كان جميل بك المعلوف معتقلاً في سجن بيروت أوقظ ليلاً

فعرف أنهم سينقلونه من معتقله وتوّهم أنه مأخوذ إلى المرقبة (المشنقة)، فأملى قصيدة على أحد رفقائه السجناء قائلاً له أن ينشرها أو يرسلها إلى أهله، وهذه بعض أبياتها:

يا من تجنى واجترم ... يا من تعدى وانتقم
يا من ولي أمر العباد ... فراح يجحد للنعم
تخذ السياسة آلة ... فيها يجر المغتنم
أعداؤه أهل الجرا ... ئد والمطابع والقلم
يا جاهلاً جهلت يداه ... أي حكم قد حكم
أفليس ناهٍ من ضمير ... ك أو هو الحجر الأصم
مهلاً فلست بنائل ... ما ترتجيه من النعم
وارجع عن الطمع الكثيـ ... ـر ولا تقل إني الأهم

إلى أن ختمها بقوله:

يا من غدا وشؤونه ... دس السموم مع الدسم
اذهب إلى حيث الرزا ... يا والبلايا والنقم
فهناك مرجع خائن ... وهناك أمر الشر تم

-وقال الشيخ سعيد الكرمي النابلسي يصف سجنه في المجلس

العرفي بعاليه بموشح طويل بليغ منه :

إنمـــا حـــير فكـــري عجـــباً كونهـــم قد جرموا مثلي بري

والـــذي لفـــق عـــني الكذبا صـــلبوه مـــذ رأوه مفـــتري

ويـــلهم لم لم يخـــافوا العطـــبا من سهام الليل وقت السحر

فدعـــا المظلوم إن جد السرى ليـــس ينجي منه جد الهرب

وتـــرى الظالم مهما استكبرا يأتـــه المقـــت بـــأدنى سبب

ظـــلموا والله فـــيما حكموا حـــين ألقـــوني بسجن أبدي

كذبـــوا والله فـــيما زعمـــوا ليـــس في العالم شيء سرمدي

ويـــلهم إذ أنهـــم مـــا علموا أن مـــولاي غـــداً معتمدي

وهـــو لا يـــبغي لظلم مظهراً ويفـــاجي أهلـــه بالـــنوب

وتـــرى الحـــال سريعاً غيرا مـــن عـــناء لصـــفاء معجب

* * * *

وتعجـــب لـــلذي قد عملوا من فعالٍ ذكرها يبكي الجماد

ويـــلهم كم من بريء قتلوا واستباحوا نهب أموال العباد

وعـــن العـــدل بقصد عدلوا وأذاهـــم كـــل يوم بازدياد

* * * *

جعلوا فعل الدنايا متجراً　　وهو شر الكسب للمكتسب
لا يجلون سوى من سكراً　　أو أضاع الرشد في حب صبي

* * * *

ثم ساقوني إلى الفيحا دمشق　　لأقضي السجن في قلعتها
عندما وافيتها ذقت الأشق　　رغم ما يؤثر من سمعتها
بين ناموس وبرغوث وبق　　سال مثل السيل في بقعتها

* * * *

فترى الكل يعاني السهرا　　من مساء لاختفاء الشهب
فلو الراحة كانت تشترى　　لشريناها بكل الذهب

-ولما نفي فائز بك الغصين من زعماء عشيرة الصلوت في لجا حوران ومن متخرجي مدرسة العشائر في الأستانة إلى جهات ديار بكر بعد سجنه في عاليه، وقف هناك على حوادث الأرمن فألف كتابه (المذابح في أرمينيا) وطبعه في مصر سنة ١٩١٧م (١٣٣٥هـ) في ٩٣ صفحة بقطع ربع. ولما اتصل بالجيش العربي فاراً ألف كتابه (المظالم في سوريا والعراق والحجاز) وطبعه في مصر أيضاً سنة ١٩١٨م (١٣٣٦هـ)

في ١١٧ صفحة بالقطع ذاته. ولقد ترجم كتابه الأول بالإنكليزية وطبع في لندن سنة ١٩١٧م وبالفرنسية وطبع في السنة نفسها. والكتابان يتضمنان حقائق كثيرة لأن المؤلف كان من مستخدمي حكومة الترك وواقفاً على أعمال رجالها ومطلعاً على أسرارهم.

-وكتب المرحوم رفيق رزق سلوم رسالة مطولة إلى والدته وأسرته من سجنه في عاليه قبل رقبه (شنقه) بأيام، جاء فيها أنه طلب أن يكتبوا على ضريحه بعد قتله الذي كان على يقين منه هذه الأبيات لبعض شعراء العرب القدماء:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جداً

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيي هويت لهم رشداً

وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي ... زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدى

-ولكثير من شهداء الوطن أقوال بديعة قبل قتلهم وعند عرضهم للقتل من منثور ومنظوم ذكرتها مفصلة في كتابي (تاريخ شهداء الوطن) المخطوط، وهو يتضمن مقدمة في نكبات المشاهير وأسباب تعرض كثيرين من المواطنين للنفي والمصادرة والسجن والرقب (الشنق)، ثم تفصيل نكبات هذه الحرب برجالنا الشهداء وترجمة كل منهم تراجم مطولة مع رسومهم وجميع شؤونهم والإشارة إلى أسرهم وحياتهم

السياسية والعلمية، فلهذا اقتصرت الآن على الإشارة إلى بعضها تتمة للبحث.

ومما يحسن أن نختم به هذه المقالة منظومات بليغة للشاعر اللبناني الرائع رشيد بك نخله تخلف بعضها عني ولكنني عرفت منها بعض زجليات رشيقة؛ منها مطلع يخاطب به من بقي في لبنان وهو منفي في القدس الشريف:

يا عين الله يساعدك ويكون معك   عاقد ما بيهطل عبر من مد معك

وقال أيضاً من زجلية طويلة:

من بعد ما ظن العدو مضناك مات   والهجر خلى جروح قلبي داميات

مر النسيم عامبسمك جاب لي معو   ريحة زباد وند ردّت لي الحياة

وقال يندب لبنان ويصف نكباته بقوله من زجلية أخرى:

يــا جــبل لبنان الله يرحمك   ويصبر عيون الوجيعة في حماك

ويرزق بناتك ناس تحمي عرضها   صــار حسنها للغير والمعيار إلك

ويرزق بناتك ناس تحمي عرضها   وتصون هوادجها وتبقى بأرضها

وتجعل الموت كرمال مجدك فرضها   وبالسيف للعز القديم ترجعك

وترجعك بالسيف للعز القديم   وتحــررك من كل غدّار ولئيم

ومن بعد هذا أحسب بدك تنهدم   شــهادة التاريخ تبقى تنفعك

وقال من القدس بعنوان "الغد" :

لغـــدٍ يـــا نفس إن يأت الغد بـــين مـــوتي وحيـــاتي موعد

أنـــا إمـــا مـــائت لا يرتجى أم طـــليق ليـــس تعلوني يد

حالـــة لابـــد أن أبـــلغها شـــاءها لي أو أباهـــا الحسد

إن أكـــن حيـــاً للبـــنان أنا رغـــم ما يلقى الكريم المنجد

أو أكـــن ميـــتاً ففي لبنان لي ذمـــة طـــابت وعهـــد جيد

وأحـــباءٌ بذكـــري إن شدوا قـــام صـــداح المعـــالي ينشد

خســـئ الحساد لا كانوا ولا كـــانت النفس التي لا تحسد

وله أغانٍ وأناشيد بديعة في وطنه وقصائد رائعة؛ منها قصيدة طويلة بعث بها إلى ولده (أمين) في لبنان قال في بعضها :

لي الله مـــا أهدى الهموم إلى قلبي وأضـــيع جدي في محاذرة الخطب

لئن كانت البلوى بشرقيّ (لندن) وكـــنت بأقصى الهند تدرج عن جنبي

وإن حبلت سود الليالي بنكبة لمـــا ولدت إلا ومفرشها قربي

وإن ثـــار ثـــوار بأيـــة بقعة من الأرض قالوا أنت مستنفر الشعب

وإن هيمنت نوّاحة الأيك في الضحى شكوا ثم قالوا الذنب في شجوها ذنبي

شـــؤوني شـــؤون معجـــبات وبلوتي بما ضمنت تلك الشؤون من العجب

فــي نفس حرٍ للصغار لا كان غيره	(بــلادي) ومــا يدلني بسيري من ربي
وكل إلى حزب بلبنان ينتمي	سواي فإن القوم أمثلهم حزبي
وكــل لــه فخــر يمت بحبله	وجل فخاري أنني رجل شعبي
أعــف واستعلي على الدهر إن خنى	وأكــبر حــتى لا أرى الناس من تربي
وأهــزأ بالأقدار تقصو وتدّني	فمــالي لديها مستوى البعد والقرب
تعودت أن أبكي لغيري وإنما	بكــائي لنفســي دونــه منقض نحبي
تجردت عن ذاتي كأني لم أكن	لــذاتي سوى في مطلب للعلى يصبي
(أمــين) ابــني المرجو كن كيفما أنت	ســوانح هذا الدهر مستحصف اللب
لئن مت فالأموات مثلي كثيرة	وإن أجفل العليا وأفجعها خطبي

-و(لمعري فلسطين) الشيخ سليمان التاجي الفاروقي أشعار رائعة قبل نفيه وبعد نفيه إلى بر الأناضول، وكنا نود نشر شيء منها فتخلفت عنا بعض منتخباتها التي وعدنا بإرسالها صديق لنا .

هذا ما وصلت إليه يد البحث من هذا القبيل

* * *

كلمة الختام

أطلقت عنان القلم في مضمار هذا البحث استقراء لأهم شؤون الاعتقال والنفي، وما قيل فيها قديماً وحديثاً عند العرب والإفرنج، وتبسطاً في تشريح العواطف، واسترسالاً مع أهواء المنكوبين؛ ليتمثل للقراء الكرام تأريخ المصائب التي جرت على ملعب الأكوان في العصور المختلفة، فأحسن كل لاعب دوره في وقته، وترك للآتين حكماً وعبراً يتناقلها الخلف عن السلف، مميطة النقاب عن مبلغ تأثر كل مظلوم وما أنطقته به الحال من الأقوال، وما أفادته من الأعمال.

فعلى العاقل أن يستخرج من هذه الدروس الأدبية نتائج مفيدة، وذرائع نافعة، يتسلح بها في غمرات الأحزان، ويتسلى بها عند غدرات الزمان.

فيقول بلسان الشيخ عبد الغفار الأخرس العراقي:

فاقتحمها إذا نبت بك يوماً ... إنما المجد بابه الاقتحام

وادفع الشر إن قدرت بشر ... ربما يدفع السقام السقام

فمتى تكبر العزائم بأساً ... صغرت عندها الأمور العظام

وتقلد بالرأي قبل المواضي ... ليس يجدي بغير رأي صدام

رب رأي في الخطب يفعل مالا يفعـــل السمهري والصمصام

وأحـــذر الغدر من طباع لئيمٍ عـــنده الغدر في الصديق ذمام

وادخـــر للوغى مقالة حرب لا تقـــوّي الأجسام إلا العظام

لا تـــلومي فـــتىً يخوض المنايا كـــل جـــبنٍ إلى الحِمام حِمام

واصـــبري فالأسى سحابة صيفٍ ولـــربي بأمـــره أحكـــام

وينشد قول الشيخ عبد الباقي العمري الفاروقي البغدادي من قصيدة رائعة:

علينـــا أهـــلة هذي الشهور عدت تحصد العمر في منجل

وداســـت بيـــادر أيامـــه بـــنات لياليـــه بـــالأرجل

وقـــد نثرته مذاري الخطوب كنـــثر الحـــبوب من السنبل

وقـــد طحنـــته رحى النائبات دقيقـــاً فمـــا احتاج للمنخل

وقـــد عجنـــته بماء الصدور أكـــف القطيعـــة في الموصل

وقـــد خـــبزته سليمى الهموم بمســـجور تـــنورها المصطلي

وقـــد قوّرتـــه رغيفـــاً رغيفاً فقلـــنا لأم الدواهـــي كـــلي

بكيـــنا عـــلى زمـــنٍ مدبـــرٍ كما الطفل يبكي على المطفل

ولابــد مــن بعد هذا البكاء ســنبكي عــلى الزمن المقبل
تشــابه ذا اليــوم مع أمسه فقســنا الأخــير على الأول

[انتهت المقالات]

(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك).

* * *

الفهرس